

الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد-تلمسان

كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم اللغة العربية و آدابها

شعبة البلاغة و الأسلوبية

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي:

أسلوب الحكيم بين القرآن و الحديث النبوي الشريف

من إعداد الطالبة:

- هبية بن قو

تحت إشراف الدكتور:

- عبد اللطيف شريفي

لجنة المناقشة:

- أ.د. عبد اللطيف شد
- د. محمد طول
- د. محمد مرتاض
- د. محمد رمزي
- د. عبد الجليل مصطفاوي

السنة الجامعية:1426هـ-1427هـ/2005م-2006م



كلمة شكر

أحمد الله و أشكره، فإنني ما كنت بالغة ما بلغت إلا بفضله وجوده و كرمه .

ثم أتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل الدكتور « عبد الجليل مصطفاوي » الذي قبل الإشراف على مذكرتي بصدر رحب .وأسأل الله تعالى أن يجزل له الأجر في الدارين.

كما أتوجه بالتقدير الصادق لأعضاء لجنة المناقشة، لتفضلها بمراجعة هذه الدراسة،استدراكا لنقصها ،و إسهاما في تكميل فائدتها.فلهم جميعا عميق التقدير.

و أشكر معهد اللغة العربية و آدابها بجميع أساتذته الذين وجدت عندهم التعاون و التجاوب.



إهداء

إلى والديّ الكريمين

إلى زوجي و أولادي

إلى كل من ساعدني و لو بكلمة طيبة



﴿ ربّنا آتنا من لدنك رحمة

و هيء لنا من أمرنا رشدا ﴾

الآية 10 من سورة الكهف

المدخل

حياة المبرّد و جهوده العلمية و البلاغية

المدخل:

أولا : التعريف بالمبرّد

1-حياته

2- سبب تلقيبه بالمبرّد

3-صفاته

4- تلامذته

5- ثقافته

6- مكانته العلمية

7- مؤلفاته

-ثانيا : جهوده النحوية و البلاغية

1-جهوده النحوية

2-جهوده البلاغية

المبحث الأول : علم المعاني

1-أضرب الخبر

2-الاستفهام

3-الالتفات

4- التعقيد اللفظي

المبحث الثاني : علم البديع و البيان

1 -التشبيه

2-الكناية

3-صور من المجاز

4-الاستعارة

3-مساهماته النقدية

أولا: التعريف بالمبرد:

1- حياته:

يزخر تاريخنا الإسلامي بشخصيات أثرت مكتبتنا العربية و بذلت جهدا خصبا في وضع أصول النحو العربي و قواعده و جمع تراثنا اللّغوي، و من بينها شخصية « محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عميّر بن حسنان[*] بن سليم[**] بن سعد بن عبد الله بن زيد بن مالك ابن الحارث بن عامر بن عبد الله بن بلال بن عوف بن أسلم بن ثماله[***] بن أحجن بن كعب بن الحارث ابن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد[*4]، و يقال الأزد بن الغوث[1] »، و يقال أيضا: « الثمالي الأزدي البصري المعروف بالمبرد النحوي ».[2]

و قيل أن أصله ليس ثمالي بل ادعاه حيث صنع أبياتا على لسان "عبد الصمد بن المعذل" يثبت بها نسبه[3] و هي[4]:

سَأَلْنَـــــا عَنْ ثُمَـــالَةَ كُلَّ حَـــيٍّ *** فَقَـــالَ القَائِلُونَ وَ مَنْ ثُمَـــــالَهْ[*]

*- في طبقات النحويين و اللغويين للزبيدي الأندلسي- تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم-دار المعرفة- ط1- 1979م: 101- و في إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي- تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم- دار الفكر العربي القاهرة- مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت- ط1- 1406هـ-1976م: 240/3- بن حسان - أما في معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب- لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي-ط1-د.ت: 137- بن غسان.

** - في إنباه الرواة على أنباه النحاة: 241/3 و معجم الأدباء: 137/7- بن سليمان.

***- في إنباه الرواة على أنباه النحاة: 241 و وفيات الأعيان و أنباء الزمان لابن خلكان-دار صادر- بيروت-ط1-314/1970:4 و معجم الأدباء و طبقات النحويين و اللغويين:101 و هو ثماله.

* 4 - في إنباه الرواة على أنباه النحاة :241 و وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان: 314/4 و معجم الأدباء: 137/7: بن الأسد.

1- الفهرست لمحمد بن إسحاق النديم- حققه و قدم له مصطفى الشويمي- الدار التونسية للنشر- ط1- 1406هـ/1985م: 266/265

2- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان- لابن خلكان: 314/4.

3- إنباه الرواة على أنباه النحاة: 253/3.

4- وفيات الأعيان: 320/4.

* - الثمالي: بضمّ الثاء المثلثة و فتح الميم و بعد الألف لام هذه النسبة إلى ثمالة قال المبرّد في كتاب الاشتقاق: إنما سمّيت ثمالة لأنهم شهدوا حربا فني فيها أكثرهم، فقال الناس ما بقي منهم إلا ثمالة، و الثمالة: البقية اليسيرة. ينظر: وفيات الأعيان:320/4.

فَقُلْتُ: مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ مِنْهُمْ *** فَقَالُوا : زِدْتَنَا بِهم جَهَالَهْ

فَقَالَ لِي المُبَرِّدُ : خِلِّ قَوْمِي *** فَقَوْمِي مَعْشَرُ فِيهِمْ نَذَالَهْ

ولد المبرد في يوم الاثنين « غداة عيد الأضحى سنة عشر و مائتين »[5] و كان أبوه من «السورجيين بالبصرة ممن يكسح الأرضين، و كان يقال له: حيّان الشورجيّ، و انتمى إلى اليمن، و لذلك تزوّج المبرد ابنة الحفصي المغنّي، و الحفصي شريف من اليمنية ».[6]

أمّا فيما يخصّ نشأته و صباه فلم تذكر المصادر عنها شيئا سوى أنه « كان جميلا لا سيما في صباه »[7]، و أنّه أكبّ منذ صغره على التزود من اللّغة على أيدي أعلام عصره من البصريين و كان شغوفا بالنحو و الصرف حيث « قرأ كتاب سيبويه على الجرمي (ت 225هـ) ثم توفي الجرمي فابتدأ قراءته على المازني (ت 249هـ) ».[8]

قال سهل بن أبي سهل البهزيّ و ابراهيم بن محمّد المسمعي: « رأينا محمّدًا بن يزيد، و هو حديث السنّ، متصدّرًا في حلقة أبي عثمان المازني يقرأ عليه كتاب سيبويه، و أبو عثمان في تلك الحلقة كأحد من فيها ».[9]

و قد أخذ العلم بالإضافة إليهما على يد نخبة من علماء عصره منهم:

-**الجاحظ (ت 225هـ)**: ظهرت تلمذته على يد الجاحظ فيما رواه عنه في كتابه الكامل حيث أنه كنّاه باللّيثي تارة و باسمه الحقيقي تارة أخرى، من أمثلة ذلك، قال:

5- معجم الأدباء: 137/7.
6- الفهرست: 266.
7- بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة- للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي- تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم- المكتبة العصرية- صيدا - بيروت- ط1-د.ت: 269/1.
8- إنباه الرواة على أنباه النحاة: 242.
9- طبقات النحويين و اللغويين: 101.

« قال أبو العباس: قال اللّيثي (هو الجاحظ) »[10]. و قال في أخرى: « قال أبو العباس حدّثني عمرو بن بحر الجاحظ »[11].

-الزيادي (**ت 249هـ**): هو أبو إسحاق ابراهيم بن سفيان، و روى عنه المبرد في كتابه الكامل حيث قال: « و حدّثني الزّياديّ ابراهيم بن سفيان بن سليمان بن أبي بكر بن عبد الرحمان بن زياد ».[12]

-الرّياشي: أبو الفضل العبّاس بن الفرج (**ت 257هـ**): روى عنه المبرد إذ قال: « و قرأت على أبي الفضل العبّاس بن الفرج الرّياشي ».[13]

انتقل المبرّد من البصرة إلى "سرّ من رأى سنة 246هـ"[14]؛ و لذلك قصة رواها أحمد بن حرب صاحب الطيلسان عن المتوكل الذي قرأ يوما و بحضرته الفتح بن خاقان ﴿وَ مَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾[15] فقال له الفتح بن خاقان: يا سيدي ﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ بالكسر: و وقعت المشاجرة فتبايعا على عشرة آلاف دينار، و تحاكما إلى يزيد بن محمد المهلّبي –و كان صديقا للمبرّد- فلمّا وقف يزيد على ذلك خاف أن يسقط أحدهما،فقال: و الله ما أعرف الفرق بينهما، و ما رأيت أعجب من أن يكون باب أمير المؤمنين يخلو من عالم متقدم، فقال المتوكل: فليس هاهنا من يسأل عن هذا؟، فقال: ما أعرف أحدا يتقدم فتى بالبصرة يعرف بالمبرّد، فقال: ينبغي أن يشخّص، فنفذ الكتاب إلى محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان الهاشميّ؛ بأن يشخصه مكرّما.

فحدّثني محمد بن يزيد قال: وردت سرّ من رأى، فأدخلت على الفتح بن خاقان فقال لي: يا بصريّ، كيف تقرأ هذا الحرف:﴿ وَ مَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالكسر، أو ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أو بالفتح؟ فقلت: ﴿إِنَّهَا﴾ بالكسر، هذا

---

[10]- الكامل في اللغة و الأدب للعلامة أبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي المتوفي 285هـ- مؤسسة المعارف- بيروت–ط1- د.ت: 294/1.
[11]- نفسه: 66/2.
[12]- نفسه: 201/1- 342.
[13]- نفسه :85/1-91.
[14]- ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة: 244/3.
[15]- سورة الأنعام: 109.

المختار، و ذلك أن أوّل الآية:﴿وَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قَالَ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَ مَا يُشْعِرُكُمْ ﴾؛ ثم قال تبارك و تعالى: يا محمّد ﴿ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، باستئناف جواب الكلام المتقدم، قال: صدقت.

و ركب إلى دار أمير المؤمنين، فعرّفه بقدومي، و طالبه بدفع ما تخاطرا عليه، و تبايعا فيه؛ فأمر بإحضاري فحضرت، فلمّا وقعت عين المتوكّل عليّ قال:يا بصريّ، كيف تقرأ هذه الآية:﴿وَ مَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ بالكسر، أو ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ بالفتح؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أكثر الناس يقرؤها بالفتح، فضحك و ضرب برجله اليسرى و قال: أحضر يا فتح المال، فقال: إنه و الله يا سيّدي قال لي خلاف ما قال لك، فقال: دعني من هذا، أحضر المال.

و أخرجت فلم أصل إلى الموضع الذي كنت أنزلته؛ حتى أتتني رسل الفتح، فأتيته فقال لي: يا بصريّ، أوّل ما ابتدأتنا به الكذب! فقلت: ما كذبت، فقال: كيف و قد قلت لأمير المؤمنين إنّ الصواب:﴿وَ مَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ بالفتح؟ فقلت: أيّها الوزير؛ لم أقل هكذا، و إنما قلت: أكثر الناس يقرؤوها بالفتح، و أكثرهم على خطأ، و إنّما تخلّصت من اللاّئمة، و هو أمير المؤمنين؛ فقال لي: أحسنت. قال أبو عباس: فما رأيت أكرم كرمًا، و لا أرطب بالخير لسانًا من الفتح ».[16]

و كان المبرّد مقدّمًا في الدّول عند الوزراء و الأكابر، و لّما مات الفتح بن خاقان كتب محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحارث يحث في إشخاص محمد بن يزيد المبرّد فلم يزل مقيما معه، و سبّب له أرزاقا على مصر حسب ما كانت أرزاق الندامى تجري عليهم من هناك .[17]

[16]– طبقات النحويين و اللغويين: 102–103.

[17]– ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة: 247/3.

و بقي في بغداد حتى توفي فيها و ذلك في « شوال و قيل في ذي القعدة سنة 285هـــ في خلافة المعتضد و صلى عليه أبو محمد يوسف بن يعقوب القاضي و دفن في دار في مقابر باب الكوفة ».[18]

و قد رثاه ابن العلاّف بأبيات سائرة، و كان ابن الجواليقي كثيرا ما ينشدها، و هي[19]:

ذَهَبَ المُبَرِّدُ وَ انْقَضَتْ أَيَّـــــامُهُ *** وَ لَيَذْهَبَنَّ إِثْـــــــرَ المُبَرِّدِ ثَعْلَبُ

بَيْتٌ مِنَ الآدَابِ أَصْبَـــحَ نِصْفُهُ *** خَرِبًـــــا وَ بَاقِي بَيْتِهَا فَسَيَخْرَبُ

فَابْكُوا لِمَا سَلَبَ الزَّمَانُ وَ وَطِّنُوا*** لِلدَّهْرِ أَنْفُسَكُمْ عَلَـــى مَا يَسْلَبُ

وَ تَزَوَّدُوا مِنْ ثَعْلَبٍ، فَبِكَأْسِ مَا *** شَرِبَ المُبَرِّدُ عَنْ قَرِيـــبٍ يَشْرَبُ

وَ أَرَى لَكُمْ أَنْ تَكْتُبُـــوا أَنْفَاسَهُ *** إِنْ كَـــانَتْ الأَنْفَاسُ مِمَّا يُكْتَبُ .

عاصر المبرد أبا العباس أحمد بن يحي الملقب بثعلب صاحب كتاب "الفصيح" الذي كان من أعلام الكوفيين، و كان يقع بينهما ما يقع بين المتعاصرين من اجتماعات و مناظرات.[20]

و يروى أن المبرد كان « يحب الاجتماع في المناظرة بثعلب و الاستكثار منه، و كان ثعلب يكره ذلك و يمتنع منه، و حكى أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الفقيه الموصلي و كان صديقهما، قال: قلت لأبي عبد الله الدينوري ختن ثعلب: لم يأت ثعلب الاجتماع بالمبرّد؟ فقال: لأن المبرّد حسن العبارة حلو الإشارة فصيح اللّسان ظاهر

---

[18]– معجم الأدباء: 142/7.
[19]– وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان: 319/4.
[20]– نفسه: 314/4.

البيان، و ثعلب مذهبه مذهب المعلمين، فإذا اجتمعا في محفل حكم للمبرّد على الظاهر إلى أن يعرف الباطن »[21]. لذا كان أكثر أهل التحصيل يفضلونه.[22]

و قال بعضهم فيهما[23]:

أَيَـــــا طَالِبَ العِلْمِ لاَ تَجْهَلَنَّ *** وَ عُـــــذْ بِالْمُبَرِّدِ أَوْ ثَعْلَـــــــبِ

تَجِدْ عِنْدَ هَذَيْـــــنِ عِلْمَ الوَرَى *** فَلاَ تَكُ كَالجَمَـــــلِ الأَجْـــــرَبِ

عُلُـــــــومَ الخَلاَئِقِ مَقْرُونَـــةٌ *** بِهَذَيْنِ فِـــــي الشَرْقِ وَ المَغْرِبِ

2- سبب تلقيبه "بالمبرّد":

اختلفت المصادر حول سبب تلقيب أبي العبّاس بالمبرّد؛ فقد ذكر الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي « في كتاب "الألقاب" أنه قال: سئل المبرد: لم لقبت بهذا اللّقب؟ فقال: كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة طلبني للمنادمة و المذاكرة فكرهت الذهاب إليه، فدخلت إلى أبي حاتم السجستاني، فجاء رسول الوالي يطلبني، فقال لي أبو حاتم: أدخل في هذا، يعني غلاف مزمّلة فارغا، فدخلت فيه و غطّى رأسه، ثم خرج إلى الرسول و قال: ليس هو عندي، فقال: أخبرت أنه دخل إليك، فقال: أدخل الدار و فتّشها، فدخل فطاف كل موضع في الدّار و لم يفطن لغلاف المزمّلة، ثم خرج فجعل أبو حاتم يصفّق و ينادي على المزمّلة: المبرِّد المبرِّد، و تسامع النّاس بذلك فلهجوا به ».[24]

-و قيل إنه لقّب بالمبرّد لأنّه لما صنّف المازني كتاب الألف و اللاّم سأله عن دقيقه و عويصه فأجابه بأحسن جواب فقال له المازني قم فأنت المبرِّد بكسر الراءِ أي المثبت للحق فحرّفه الكوفيون و فتحوا الرّاء.[25]

[21]- معجم الأدباء: 141/7.
[22]- ينظر: بغية الوعاة: 269/1.
[23]- معجم الأدباء: 139/7.
[24]- وفيات الأعيان: 321/4.
[25]-ينظر: معجم الأدباء: 137/7.

و لقبه هذا كان سببا في التندر عليه أحيانا، يقول المبرّد:

« ما تنادر أحد [عليٌّ] ما تنادر به سذاب الورّاق، فإنّي اجتزت يوما به و هو قاعد بباب داره، فقال لي: إلى أين؟ و لاطفني و عرض عليّ القرى، فقلت له: ما عندك!؟ فقال: عندي أنت و عليه أنا، يشير إلى اللّحم المبرَّد بالسذاب».[26]

3- صفاته:

وصف أبو بكر بن أبي الأزهر –تلميذ المبرّد- أستاذه فقال: « كان أبو العبّاس محمد بن يزيد من العلم، و غزارة الأدب، و كثرة الحفظ و حسن الإشارة، و فصاحة اللّسان، و براعة البيان و ملوكية المجالسة و كرم العشرة، و بلاغة المكاتبة، و حلاوة المخاطبة، و جودة الخطّ، و صحّة القريحة، و قرب الإفهام، و وضوح الشرح، و عذوبة المنطق على ما ليس عليه أحد ممن تقدّمه أو تأخّر عنه ».[27]

و كان المبرّد حسن المحاضرة، فصيحا، بليغا، مليح الأخبار، ثقة فيما يرويه، كثير النوادر فيه ظرافة و لباقة [28]. و كان «كثير الأمالي»[29] و ممّا أملاه:

أن المنصور أبا جعفر ولّى رجلا على الإجراء على العميان و الأيتام و القواعد من النساء اللّواتي لا أزواج لهنّ، « فدخل على هذا المتولي بعض المتخلفين و معه ولده، فقال له: إن رأيت أصلحك الله أن تثبت اسمي مع القواعد، فقال له المتولي: القواعد نساء فكيف أثبتك فيهنّ؟ فقال: ففي العميان؟ فقال: أمّا هذا فنعم، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[30] فقال: و تثبت ولدي في الأيتام، فقال: و هذا أفعله أيضا، فإنه من تكن أنت أباه فهو يتيم، فانصرف عنه و قد أثبته في العميان و ولده في الأيتام ».[31]

---

[26]- وفيات الأعيان: 316/4.
[27]- إنباه الرواة: 242/3.
[28]- ينظر: معجم الأدباء: 137/7.
[29]- وفيات الأعيان: 314/4.
[30]- سورة الحج: 46.
[31]- وفيات الأعيان: 315/4.

و تدلّ كتابات المبرّد المختلفة على أنّه كان دقيق الحسّ اللّغوي دقّة شديدة، فأودع كتبه و مصنفاته كثيرا من الملاحظات اللّغوية و التعبيرية التي تدلّ على رهافة حسّه.

و روي عنه أنّه كان شاعرا، فبالإضافة إلى رياسته و تفرّده بمذهب أصحابه، و إربائه عليهم بفطنته و صحّة قريحته كان يقول الشعر، و كان لا ينتحل ذلك و لا يعتزى إليه، و لا يرسم نفسه به، بل كان يقول شعره جيّد كثير لا يدّعيه و لا يفخر به، فمنه قوله في « عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحارث، و قد ورد عليه كتابه و في درجة التسبيب بأرزاقه إلى مصر، فأجاب عن الكتاب بأبيات قالها على البديهة:

بِنَفْسِي أَخٌ بَرٌّ شَدَدْتُ بِهِ أَزْرِي *** فَأَلْفَيْتُهُ حُرًّا عَلَــى العُسْرِ وَ اليُسْرِ

أَغِيبُ فَلِــي مِنْهُ ثَنَاءٌ وَ مِدْحَةٌ *** وَ أَحْضُرُ مِنْهُ أَحْسَنَ القَوْلِ وَ البِشْرِ

وَ مَا طَاهِرٌ إِلاَّ جَمَالٌ لِصَحْبِهِ *** وَ نَــاصِرُ عَافِيهِ عَلَى كَلَبِ الدَّهْرِ

تَفَرَّدْتَ يَا خَيْرَ الوَرَى فَكَفَيْتَنِي *** مُطَالَبَةً شَنْعَاءَ ضَاقَ لَهَــــا صَدْرِي »[32]

و لكن رغم كل تلك الصفات التي ذكرت فيه إلاّ أنه كان بخيلا بل كان من أبخل الناس بكلّ شيء، حيث كان يقول: « إنه لا يكون نحويٌّ جوادًا؛ فقيل له: و كيف ذلك؟ قال: ترونه يفرّق بين الهمزتين، و لا يفرّق بين سبب الغنى و الفقر! يريد أن الإمساك سبب من أسباب الغنى، و العطاء سبب من أسباب الفقر ».[33]

و قال أيضا: « ما وزنت شيئا بالدّرهم إلاّ ورجح الدّرهم في نفسي».[34]

---

[32]– إنباه الرواة: 247/3.
[33]– طبقات النحويين و اللغويين: 106..
[34]– إنباه الرواة: 249/3.

4-تلامذته:

تلقى العلم على يد المبرّد جماعة من العلماء المشهورين، و منهم:

- **أبو بكر المعروف بمبرمان النحوي (ت 326هـ)**: « هو محمد بن علي ين اسماعيل العسكري، أخذ النحو عن المبرّد و عن أبي إسحاق ابراهيم الزجّاج و أكثر عنه... و كان إمام في النحو قيما به ».[35]

- **الأخفش الصغير(ت 315هـ)**:« هو عليّ بن سليمان بن الفضل الأخفش...مات في شعبان سنة خمس عشرة و ثلاثمائة...قال: أنشدنا أبو العبّاس المبرّد:

لاَ تَكْرَهَـــــنْ لَقَبًا شُهِرْتَ بِهِ *** فَلَرُبَّ مَحْظُـــــوظٍ مِنَ اللَّقَبِ

قَدْ كَـــــانَ لُقِّبَ مَرَّةً رَجُلٌ *** بِالوَائِلِـــــيُّ فَعُدَّ فِي العَـــرَبِ

و كان الأخفش قد قرأ على ثعلب و المبرّد و أبي العيناء و اليزيدي.

و حدّث الأخفش قال: استهدى ابراهيم بن المدبّر المبرّد، جليسا يجمع إلى تأديب ولده الاستماع بإيناسه و مفاكهته فندبني إليه».[36]

-**ابن درستويه (ت347هـ)**: « أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه بن المرزبان الفارسي الفسوي النحوي؛ كان عالما فاضلا أخذ فن الأدب عن ابن قتيبة و عن المبرد و غيرهما ببغداد... و تصانيفه في غاية الجودة و الإتقان ».[37]

-**ابن السّرّاج (ت 316هـ)**: « محمد بن السّري بن سهل، أبو بكر السّرّاج البغدادي النحوي. قال المرزبانيّ: كان أحدث أصحاب أبي العبّاس المبرّد مع ذكاء و فطنة، قرأ عليه كتاب سيبويه...و يقال:مازال النحو مجنونا حتى عقله ابن السّرّاج بأصوله؛ و كان

---

[35]- معجم الأدباء لياقوت الحموي: المجلد التاسع: 254/18- دار الفكر للطباعة و النشر- ط3- 1400هـ/1980م.

[36]- نفسه: المجلد السابع- ج246/13-249-255.

[37]- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان: 44/3.

أحد العلماء المذكورين و أئمة النحو المشهورين؛ و إليه انتهت الرّياسة في النحو بعد المبرّد ».[38]

-ابن الزّجّاج (ت311هـ): « ابراهيم بن السّريّ بن سهلٍ، أبو إسحاق النحويّ قال الخطيب: كان من أهل الدين و الفضل، حسن الاعتقاد، جميل المذهب، و له مصنّفات حسان في الأدب، مات في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة و ثلاثمائة »[39].

قال أبو محمد عبد الله بن درستويه النحوي: « حدّثني الزجّاج قال: كنت أخرط الزّجاج فاشتهيت النحو، فلزمت المبرّد لتعلّمه، و كان لا يعلّم مجّانا و لا يعلّم بأجرة إلا على قدرها، فقال لي أيّ شيء صناعتك؟ قلت: أخرط الزّجاج، و كسبي كل يوم درهم و دانقان أو درهم و نصف، و أريد أن تبالغ في تعليمي، و أنا أعطيك كلّ يوم درهما، و أشرط لك أن أعطيك إياه أبدا إلى أن يفرّق الموت بيننا، استغنيت عن التعليم أو احتجت إليه، قال: فلزمته و كنت أخدمه في أموره مع ذلك و أعطيه الدرهم، فينصحني في العلم حتى استقللت، فجاء كتاب بعض بني مارقة من الصّراة يلتمسون معلّما نحويّا لأولادهم، فقلت له أسمني لهم فأسماني، فخرجت فكنت أعلّمهم و أنفذ إليه في كلّ شهر ثلاثين درهما... و كنت أعطي المبرّد ذلك الدّرهم في كل يوم إلى أن مات، و لا أخليه من التفقد بحسب طاقتي ».[40]

و روى القفطي قصّة أخرى عن اتصال الزّجّاج بالمبرّد قال: لّما قتل المتوكّل بسرّ من رأى دخل المبرّد إلى بغداد، فقدم بلدا لا عهد له بأهله، فاختل و أدركته الحاجة، فتوخّى شهود صلاة الجمعة فلما قضيت الصلاة أقبل على بعض من حضره، و سأله أن يفاتحه السّؤال ليتسبب له القول، فلم يكن عند من حضره علم، فلما رأى ذلك رفع صوته و طفق يفسّر و يوهم بذلك أنه سئل، فصارت حوله حلقة عظيمة...

---

[38]- معجم الأدباء: المجلد التاسع- 18/197-198.

[39]- نفسه: المجلد الأول:1/130.

[40]- نفسه: 1/130.

فلمّا نظر ثعلب إلى من حول أبي العباس المبرّد أمر ابراهيم بن السرّي الزّجّاج و ابن الخيّاط بالنهوض، و قال لهما: فضّا حلقة هذا الرّجل، فنهض معهما من حضر من أصحابه فلمّا صاروا بين يديه قال له ابراهيم بن السرّي: أتأذن –أعزّك الله– في المفاتشة؟ فقال له المبرّد: سلْ عمّا أحببت، فسأله عن مسألة فأجابه عنها بجواب أقنعه.

فنظر الزّجاج في وجوه أصحابه متعجّبا من تجويد أبي العبّاس للجواب، فقال:نعم؛ [قال]: فإن قال قائل في جوابنا هذا، ما أنت راجع إليه؟ و جعل أبو العبّاس يوهن جواب المسألة و يفسده و يعتل فيها. فبقي ابراهيم بن السرّي سادرا يحيّر جوابا، ثم قال: إن رأى الشيخ–أعزّه الله– أن يقول في ذلك. فقال المبرّد: فإن القول على نحو كذا؛ فصحّح الجواب الأول و أوهن الاعتراض.

فبقي الزّجّاج مبهوتا، ثم قال في نفسه: قد يجوز أنه كان حافظا لهذه المسألة، مستعدّا للقول فيها؛ فسأله مسألة ثانية، ففعل المبرّد فيها ما فعله [في] الأولى؛ حتى سأله أربع عشرة مسألة، و هو يجيب عن كل واحدة منها بما فعله في المسألة الأولى.

فلمّا رأى ذلك الزّجّاج قال لأصحابه: عودوا إلى الشيخ، فلست مفارقا هذا الرجل و لابد لي من ملازمته و الأخذ عنه. فعاتبه أصحابه و قالوا: تأخذ عن مجهول لا يعرف اسمه، و تدع من شهر اسمه و علمه، و انتشر في الآفاق ذكره! فقال: لست أقول بالذكر و الخمول؛ و لكنّي أقول بالعلم و العمل. قال: فلزم أبا العبّاس، فسأله عن حاله فأخبره برغبته في النظر، و أنه قد حبس نفسه على ذلك؛ إلا ما يشغله من صناعة الزّجاج في كل خمسة أيام من الشهر؛ فيتقوّت بذلك الشهر كلّه. ثم أجرى عليه في الشهر ثلاثين درهما.[41]

[41]– ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة: 250.

5-ثقافته:

إنّ المبرّد من جيل ابن قتيبة(ت 276 هـــ) و تلميذ للجاحظ (ت225هـــ) روى عنه في عدّة مواطن من كتبه، و قد صرّح بروايته عنه في مواطن عديدة من "الكامل" إلا أن هذه التلمذة و ذلك التزامن لما يتولد عنهما تجانس في الاهتمام و المشارب، لئن كانت ثقافة كل من الجاحظ و ابن قتيبة تتّسم بالشمول و النظر الموسوعي، مع فارق في الدرجة و النوع، مسخرة لأغراض عقائدية أملاها انتماؤهما المذهبي، فإن ثقافة المبرّد غلب عليها الطابع اللّغوي بالدرجة الأولى و الطابع الأدبي بالدرجة الثانية فالرجل شيخ من شيوخ النحو و العربية و رأس الطبقة السادسة من النحاة .

و المتصفّح لقائمة المصادر المنسوبة إليه يرى بوضوح غلبة هذين المترعين –اللغوي و الأدبي– برغم أنه لم يتخلّف عن المساهمة بالتأليف في مشاغل عصره إلا أنه إما باشر ذلك من زاوية لغوية...أو أن مساهمته لا تعدو الرسالة المفردة في الموضوع.[42]

6-مكانته العلمية:

احتلّ المبرّد مكانة مرموقة بين معاصريه و شهد له من تأخّر عنه بعلمه، قال فيه تلميذه نفطويه: « ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد منه».[43]

و قال اليوسفيّ الكاتب–كاتب المأمون–: « كنت يوما عند أبي حاتم السجستاني إذ أتاه شاب من أهل نيسابور فقال: يا أبا حاتم إنّي قدمت بلدكم، و هو بلد العلم و العلماء، و أنت شيخ هذه المدينة، و قد أحببت أن أقرأ عليك "كتاب سيبويه"، فقال: "الدّين النّصيحة" إن أردت أن تنتفع بما تقرؤه فاقرأ على هذا الغلام، محمد بن يزيد، فتعجّب».[44]

---

[42]– ينظر: التفكير البلاغي عند العرب– أسسه و تطوره إلى القرن السادس–حمادي صمود– منشورات الجامعية التونسية– طبعة بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية–ط1–1981: 242.

[43]– بغية الوعاة: 269/1.

[44]– طبقات النحويين و البلاغيين: 101.

و قال اسماعيل بن إسحاق القاضي: « لم ير أبو العباس مثل نفسه ممّن كان قرينه و لا يرى بعده مثله».[45]

قال السيرافي: « سمعت أبا بكر بن مجاهد يقول: ما رأيت أحسن جوابا من المبرّد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم و لقد فاتني منه علم كثير لقضاء ذمام ثعلب».[46]

و قال أيضا: « انتهى علم النحو بعد طبقة الجرمي و المازني إلى أبي العباس بن يزيد الأزدي ».[47]

و قال أبو سعيد –رحمه الله-: « و قد نظر في كتاب سيبويه في عصره جماعة و لم يكن لهم كنباهته، يعني المبرّد ».[48]

و ذكره ابن جنّي فقال: « يعد جيلا في العلم، و إليه أفضت مقالات أصحابنا و هو الذي نقلها و قررها و أجرى الفروع و العلل و المقاييس عليها ».[49]

أما الأزهري فقد قال عنه في مقدمة معجمه « تهذيب اللّغة: كان أعلم النّاس بمذاهب البصريين في النحو و مقاييسه ».[50]

و وصفه "الخطيب البغدادي" بأنّه « شيخ أهل النحو، و حافظ علم العربية... و كان عالما فاضلا موثوقا به في الرواية، حسن المحاضرة، مليح الأخبار، كثير النوادر».[51]

[45]– أنباه الروّاة: 242/3.
[46]– معجم الأدباء: 137/7.
[47]– أثر النحاة في البحث البلاغي لعبد القادر حسين– دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع– القاهرة– ط1– د.ت: 201.
[48]– الفهرست: 269.
[49]– المدارس النحوية–شوقي ضيف– دار المعارف بمصر– ط1– د.ت: 124.
[50]– تهذيب اللغة– أبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهر– الأزهري الهروي المتوفي 370هـ– تحقيق أحمد عبد الرحمن مخيمر– دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان– ط1– 2004م–1425هـ:34/1.
[51]– تاريخ بغداد أو مدينة السلام– للخطيب البغدادي– دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان– د.ط– د.ت: 380/3.

و قال البحتري في مدح المبرد[52]:

مَـــــا نَالَ مَا نَالَ الأَمِيرُ مُحَمَّدٌ *** إِلاَّ بِيُمْــــنِ مُحَمَّد بْنُ يَزِيــــدِ

وَ بَنُـــــوا ثُمَالَةَ أَنْجَمٌ مَسْعُودَةٌ *** فَعَلَيْكَ ضَـــــوْءَ الكَوْكَبِ المَسْعُودِ

7- مؤلفاته:

إن علم المبرّد الدقيق بالشعر، و براعته في النحو و اللّغة، كانت حصيلته مؤلفات تطرق فيها إلى ما تطرق إليه النحاة قبله، و أضاف إليها ما استفاده من النقّاد و البلاغيين و هذه المؤلفات هي: « كتاب الكامل- كتاب الروضة- كتاب المقتضب- كتاب الاشتقاق- كتاب الأنواء و الأزمنة- كتاب القوافي- كتاب الخطّ و الهجاء- كتاب المدخل إلى سيبويه- كتاب المقصور و الممدود- كتاب المذكّر و المؤنّث- كتاب معاني القرآن و يعرف بالكتاب التّام- كتاب احتجاج القراءة- كتاب الرّسالة الكاملة- كتاب الرّد على سيبويه- كتاب قواعد الشّعر- كتاب إعراب القرآن- كتاب الحثّ على الأدب و الصّدق- كتاب قحطان و عدنان- كتاب الزّيادة المنتزعة من [كتاب] سيبويه- كتاب المدخل في النحو- كتاب شرح شواهد كتاب سيبويه- كتاب ضرورة الشعر- كتاب أدب الجليس- كتاب الحروف في معاني القرآن إلى [سورة] طه- كتاب معاني صفات الله-جلّ و علا- كتاب الممادح و المقابح- كتاب الرّياض المؤنّقة- كتاب أسماء الدّواهي عند العرب- كتاب الإعراب- كتاب الجامع، لم يتمّه- كتاب التعازي- كتاب الوشي- كتاب فقر كتاب سيبويه- كتاب النّاطق- كتاب العروض- كتاب فقر كتاب الأوسط للأخفش- كتاب البلاغة- كتاب شرح كلام العرب و تلخيص ألفاظها و مزاوجة كلامها و تقريب معانيها- كتاب ما اتفقت ألفاظه و اختلفت معانيه في

---

[52]- الأبيات غير موجودة في الديوان: ينظر: المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد- عالم الكتب بيروت- تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم- ط1-د.ت: 25/1.

القرآن- كتاب الفاضل و المفضول- كتاب طبقات النحويين البصريّين و أخبارهم- كتاب العبارة عن أسماء الله تعالى- كتاب الحروف- كتاب التصريف ».[53]

و أهمّ هذه المؤلّفات كتابه "الكامل"، الذي عرّفه صاحبه في مقدمته فقال: « هذا كتاب ألّفناه يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور و شعر مرصوف و مثل سائر و موعظة بالغة و اختيار من خطبة شريفة و رسالة بليغة و النيّة فيه أن نفسّر كلّ ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق و أن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا وافيا، شافيا حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا و عن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيا و بالله التوفيق و الحول و القوة و إليه مفزعنا في درك كل طلبة و التوفيق لما فيه صلاح أمورنا من عمل بطاعته و عقد يرضاه و قول صادق يرفعه عمل صالح إنه على كلّ شيء قدير ».[54]

و يعدّ هذا الكتاب –الكامل- « من نوع المؤلفات التي يصعب اليوم إدراجها ضمن فرع من فروع الاختصاصات اللّغوية و الأدبية، فهو جامع لأشتات من العلوم و المعارف لا يربط بينها إلا وقوعها في حيّز الأدب كما كان يفهمه العرب القدامى و لهذا عدّ من أمهات الأدب و أصوله».[55]

إنّ هذا الكتاب يحتوي بين جوانبه على خطرات نقدية و بلاغية ذات بال تكشف عن أهمية الجهد الذي بذله صاحبه في تطوير مسائل هذا العلم. و هذه الخطرات متفاوتة القيمة فمنها قضايا نظرية عامة تتعلّق بضبط خصائص النص الأدبي و إبراز أبعاده الفنّية و الجمالية و منها إشارات تعليمية تدور حول بعض الأساليب البلاغية من جهة تحديدها و إبراز أقسامها و دورها في الخروج بالكلام عن صبغة الاشتراك و العموم إلى صيغة متميّزة معدولة عن النمط العادي في استعمال الكلام .

---

[53]- الفهرست: 268/267.

[54]- الكامل: 2/1.

[55]- المقدمة لابن خلدون- دار الكتاب اللبناني و مكتبة المدرسة-بيروت- لبنان- د.ط- د.ت:1970.

و يرى الدكتور بدوي طبانة أنّ هذا الكتاب « زاخر بفنون الأدب، مع كثير من الشرح و التحليل، و كثير من النقد و الموازنة و قليل من الكلام في عناصر الأدب. و الطابع العام لهذا الكتاب هو أدب الرواية و إن كان يحتوي على كثير من آثار الفطنة و الفهم، كالبحث المستفيض الذي كتبه في فنّ التشبيه... و ككلامه في الكناية... و فيه كذلك كثير من النقد الأدبي الذي يدل على ملكة المبرّد و ذوقه الأدبي و تنبه حاسّته الفنية، و لمحه أخذ المعاني و سرقتها و محاولة إخفائها ».[56]

بينما يرى الدكتور محمد زغلول سلام أن هذا الكتاب « في معاني الشعر كان أقرب إلى النقد الأدبي، لما سيطر على كاتبه من حسن تفهم و تذوق، و غوص على المعاني الدقيقة، و قدرة على التحليل البياني و اللّغوي... و هكذا يجري هذا الكتاب على سنن غيره من كتب المختارات الأدبية و النوادر، ثم الأمالي و المحاضرات، و شبيه بكتاب "البيان و التبيين" للجاحظ، و إن كان كتاب الجاحظ أخص موضوعا و ألزم لاتجاه بعينه، أما هذا فلم يتجه فيه صاحبه اتجاها بعينه و لم يلزم سننا واضحا إنّما هي مختارات من النثر و الشعر يعرضها فيشرحها، و يستطرد الشرح إلى عرض نصوص أخرى و هكذا ».[57]

و من آثاره أيضا المنشورة و المشهورة كتابه "المقتضب" في النحو و هو من « أنفس مؤلفاته و أنضج ثمراته و أصدق وثيقة سجلت آراءه و اتجاهاته، و لو تبارى النحويون لكان آخره جواد يقدمه المبرّد إلى السياق ».[58]

حكى الرمّاني قال: « ذكر كتاب الأصول بحضرة ابن السرّاج، فقال قائل هو أحسن من المقتضب فقال أبو بكر لا تقل هكذا و أنشد:

---

[56]- البيان العربي- لبدوي طبانة- دار الثقافة- بيروت- لبنان- 1406هـ/1985م: 79-80.

[57]- تاريخ النقد الأدبي و البلاغة حتى أواخر القرن الرابع الهجري- لمحمد زغلول سلام- منشأة المعارف بالإسكندرية- ط3- د.ت: 376-377.

[58]- أبو العبّاس المبرّد و أثره في علوم العربية- لمحمد عبد الخالق عضيمة- مكتبة الرّشد- الرياض- ط1- 1405هـ-1949م: 127.

وَ لَوْ قِيلَ مَبْكَـــاهَا بَكِيتُ صَبَابَةً *** بسَعْدِي شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَنَدُّمِ

وَ لَكِنْ بَكِيتُ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي البُكَا *** بُكَاهَا فَقُلْتُ الفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ ».[59]

و أبو علي الفارسي قد هضم المقتضب حقّه و هوّن أمره بقوله: « نظرت في المقتضب فما انتفعت منه بشيء إلا بمسألة واحدة و هي وقوع إذا جوابا للشرط »[60]،في قوله تعالى:﴿وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[61].

يمتاز المقتضب بوضوح العبارة و قد يكون مرجع هذا إلى أن المبرّد نظر في الأدب، و الأدب صقال تحتك به العقول فيزول صدؤها و تتعلق به الألسنة فتعذب أسلاتها و تتعرض له الطباع فتلين جوانبها و ترق حواشيها. كما يمتاز بكثرة التطبيق، فقد عقب كثيرا من الأبواب بمسائل تطبيقية أطال فيها أو أكثر منها.[62]

و تعدّ رسالته "البلاغة" مشاركة جدّية للمبرّد في تطوير مسائل هذا العلم « فرغم صغر حجمها و تواضع مضمونها بالقياس إلى عنوانها تبدو لنا جديرة بالاهتمام، ناهيك أن صاحبها أول من أطلق البلاغة على بعض رسائله »[63].

و الدافع إلى تأليفها رسالة وردت عليه من بعض أولي الأمر يسأله فيها رأيه في « أي البلاغتين أبلغ: أ بلاغة الشعر أم بلاغة الخطب و الكلام المنثور و السّجع؟»[64]. فبيّن أن مصطلح البلاغة في هذه الرسالة « مستعمل في معنى خاص يتصل بغرض المفاضلة بين شكلين من أشكال الكتابة المنثور من جهة و المنظوم من جهة ثانية ».[65]

59– أبو العباس المبرد و أثره في علوم العربية: 127.
60– معجم الأدباء: 143/7
61– سورة الروم: 36.
62– ينظر: أبو العبّاس المبرّد و أثره في علوم العربية: 134.
63– التفكير البلاغي عند العرب: 344.
64– البلاغة لأبي عبّاس محمد بن يزيد المبرّد– حققها و قدّم لها و صنع فهارسها رمضان عبد التوّاب– مكتبة الثقافة الدينية– ط2– ت 1405هـ– 1985م: 70.
65– التفكير البلاغي عند العرب: 344.

إن هذه الرسالة لا تتناول علم البلاغة بالتدريس و التبويب و التحديد و إنّما هي آراء في جودة الشعر و جودة النثر و محاولة للمقارنة بينهما لم تنته إلى نتائج حاسمة.

إذًا هذه الرّسالة هي مشاركة نقدية تثير جملة من القضايا البلاغية تتصل بمقاييس جودة النص اعتمادا على بنائه اللّغوي و بدون الاعتماد على عناصر أجنبية عنه.

ثانيا: جهوده النحوية و البلاغية

1-جهوده النحوية:

يعد المبرّد –بحق- آخر أئمة المدرسة البصرية المهمّين و لقد تأثر بسيبويه تأثرا واضحا حتى إنه عدّ نفسه الأمين على النحو البصري بعده، و وقف بثبات أمام تحديات الكوفة و عصبيتهم و عمل جهده ألاّ يغيّر من مصطلحات سيبويه إلاّ فيما لم يستطع سيبويه أي يقيّمه على صوى واضحة.[66]

وصل تأثّر المبرّد بسيبويه درجة أن كتابه "المقتضب" قارب أن يكون نسخة من كتاب سيبويه في كثير من المسائل و لا يخرج عن مصطلحات الكتاب إلاّ قليلا.[67]

فالمصطلحات التي وردت عند سيبويه نجد المبرّد « استعملها كما كان سيبويه من قبل يفعل و الشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، بل لقد تابعه في بعض المصطلحات التي لم تأخذ شكلها النهائي. فسيبويه يسمّي الحرف المتحرّك حرفا حيّا فيحافظ المبرّد على هذا المصطلح بالرغم من عدم صلاحيته للبقاء، فتراه يقول عن الواو في مثل (جدول، و قسورة)، إنها ظاهرة حيّة أي متحركة و يقول في موضع آخر: " و المتحرك حرف حي" و سيبويه كان يطلق على الحال مصطلحات "الخبر، و الصفة، و المفعول فيه" فأخذ منها المبرّد مصطلح المفعول فيه و أطلقه على الحال كما عبّر عن الهمزة بالألف تماما مثلما فعل سيبويه ».[68]

[66]– ينظر المصطلح النحوي: نشأته و تطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري– لعوض حمد القوزي– ديوان المطبوعات الجامعية– الجزائر – 1983– ط1– 1401هـ/1981م: 179.

[67]– نفسه: 156.

[68]– نفسه: 156.

و مجمل القول إنّ المبرّد وقف حارسا أمينا على مصطلحات سيبويه ليحفظ للمصطلح النحوي وجهه البصري الذي تضافرت جهود أئمة النحو على صناعته و تقدمت به البصرة خطوات كبيرة لا يزاحمها شرف هذه المسؤولية.

إن حرص المبرّد الشديد على المحافظة على مصطلحات سيبويه لا يعني أنه مقلّد لسيبويه في كلّ شيء بل إنّه قد ساهم في تطور الدرس النحوي بآراء نحوية و صرفية أفادت النحاة بعده.

فمن آرائه النحوية حديثه عن البدل حيث قسّمه إلى أربعة أضرب شرحها:

الضرب الأول عرفه بقوله: « أن يبدل أحد الاسمين من الآخر إذا رجعا إلى واحد، ولا تبالي أمعرفتين كانا أم معرفة و نكرة، و تقول: مررت بأخيك زيدٍ، لأن "زيدا" هو الأخ، وكذلك: مررت برجل عبد الله، فهذا واحد »[69]، مثلا قول الله:﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[70] ».

الضرب الثاني هو: « أن يبدل بعض الشيء منه»[71] و مثل له بقول الله تعالى: ﴿وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[72] و شرح البدل في الآية فقال: « من في موضع خفضٍ، لأنها بدل من الناس».[73]

البدل الثالث ورد في الآية التالية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾[74] « لأن المسألة إنما كانت عن القتال: هل يكون في الشهر الحرام؟».[75]

البدل الرّابع عرّفه بما يلي: « لا يكون مثله في القرآن و لا في الشعر، و هو أن يغلط المتكلّم فيستدرك غلطه، أو ينسى فيذكر فيرجع إلى حقيقة ما يقصد له»[76]، و مثّل

---

[69]- الكامل لأبي العبّاس محمد بن يزيد المبرد- عارضه بأصوله و علق عليه محمد أبو الفضل ابراهيم و سيّد شحاتة- دار النهضة مصر للطبع و النشر: 17/3.
[70]- سورة الفاتحة: 6.
[71]- الكامل: 17/3.
[72]- سورة آل عمران: 97.
[73]- الكامل: 17/3.
[74]- سورة البقرة: 217.
[75]- الكامل: 18/3.
[76]- نفسه:19.

له بالآتي: « مررت بالمسجد دار زيد، أراد أن يقول: مررت بدار زيدٍ، فإمّا نسي و إمّا غلط، فاستدرك فوضع الذي قصد له في موضع الذي غلط فيه».[77]

و لقد عرّف المبرّد أسماء الأفعال فقال: « ما جرى مجرى الفعل و ليس بفعل و لا مصدر، و لكنّها أسماء وضعت للفعل، تدلّ عليه، فأجرين مجراه ما كانت في مواضعها».[78]

أما "عليك" فذكرها المبرّد « أنها بمعنى "خذ"، تقول: عليك زيدًا أي خذ زيدًا »[79]. أمّا سيبويه فيقول:"إذا"، قال: عليك زيدًا فكأنه قال:ائت زيدًا ».[80]

و من آرائه في لولا عند اتصالها بالضمير قال: « نفسّر أشياء من العربية تحتاج إلى الشرح، من ذلك قوله: و لولاك، فإن سيبويه يزعم أن لولا "تخفض المضمر، و يرتفع بعدها الظاهر بالابتداء فيقال: إذا قلت لولاك، فما الدليل على أن الكاف مخفوضة دون أن تكون منصوبة، و ضمير النصب كضمير الخفض؟، فتقول: إنّك تقول لنفسك لولاي، و لو كانت منصوبة لكانت النون قبل الياء كقولك: رماني و أعطاني... و زعم الأخفش سعيد أن الضمير مرفوع... قال أبو العبّاس: و الذي أقوله إن هذا خطأ لا يصلح إلا أن تقول لولا أنت »[81]، كما قال الله عزّ و جلّ:﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[82].

و من آرائه الصرفية: تصغير الترخيم الذي عرّفه فقال: « هو أن تحذف الزوائد من الاسم ثمّ تصغر حروفه الأصلية، فتقول في تصغير أحمد: حُمَيْدَ لأنه من الحمد، و في الحارث: حُرَيْثْ لأنه من الحرث، و في غضبان: غُضَيْبٌ، لأنه من الغضب لأن الألف و النون زائدتان».[83]

---

[77]- الكامل: 19.
[78]- التعبير الزمني عند النحاة العرب حتى القرن الثالث- ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية- 24/2.
[79]- الكتاب- سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر- تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون – دار الكتب العلمية- بيروت- ط3- 1408هـ-1988م: 50/1.
[80]- المقتضب لأبي العباس:205/3..
[81]- الكامل: 249/2-250.
[82]- سورة سبأ: 31.
[83]- الكامل: 15/3.

و بيّن المبرّد طريقة صياغة اسم فاعله من الفعل الثلاثي الأجوف فقال: « و كذلك كلّ فعل من الثلاثة ممّا عينه واو أو ياء، إذا كانت معتلة ساكنة، تقول: قال يقول، باع يبيع، خاف يخاف، و هاب يهاب، يعتلّ اسم الفاعل فيهمز موضع العين نحو قائل، بائع، خائف و هائب».[84]

و شرح أصل كلمة "المزمّل" في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[85]، فقال: « و هو المتزمّل، بثيابه، و التاء مدغمة في الزاي».[86]

و تكلّم عن كلمة "كائن و أصلها فقال: « و كائن معناه كم، و أصله كاف التشبيه دخلت على أي فصارتا بمنزلة كم».[87]

و من آرائه أيضا و التي خالف فيها أستاذه سيبويه: « لا يكون فعل يفعل، إلا أن يكون يعرض له حرف من حروف الحلق الستة في موضع العين أو موضع اللام، فإن كان ذلك الحرف عينا فتح نفسه، و إن كان لاما فتح العين. و حروف الحلق الهمزة و الهاء و العين و الحاء و الغين و الخاء. و ذلك قولهم: قرأ يقرأ قرأً... و سيبويه يذهب في يأبى إلى أنه إنما انفتح من أجل أن الهمزة في موضع فائه، و القول عندي على ما شرحت لك من أنه إذا فتح حدث فيه حرف من حروف الحلق، فإنما انفتح لأنه يصير الألف و هي من حروف الحلق».[88]

لقد استنبط المبرّد تلك الآراء بالأخذ بالسماع و التعليل و القياس.

أ)-**السماع**: اعتنى المبرّد بالسماع عناية شديدة و مضى في إثر أستاذه المازني لا يرتضى بعض القراءات الشاذّة ما دامت لا تطّرد مع قواعده النحوية. و تشدد مثل سالفيه في قبول الرواية عن العرب، و كان يطعن في رواية بعض الأشعار المأثورة مادامت لا تستقيم مع مقاييسه، حتى لو وردت عند سيبويه.

---

[84]- الكامل: 173/3.
[85]- سورة المزمل: 1-2.
[86]- الكامل: 91/3.
[87]- نفسه: 233/2.
[88]- نفسه: 366/1.

من بين الشواهد على ذلك أن سيبويه استشهد على تسكين المضارع في الضرورة الشعرية[89]بقول امرئ القيس[90]:

فَاليَـــــوْمَ أَشْرِبْ غَيْرَ مُسْتَحْقَبٍ *** إِثْمًـــــا مِنَ اللهِ وَ لاَ وَاغِـــلَ

و قال المبرّد: « ليست هذه هي الرواية الصحيحة للبيت إنما روايته الصحيحة في مطلعه هي: "فاليوم فاشرب"، و إذن يكون الفعل طبيعيا لأنه فعل أمر». [91]

ب)-**التعليل**: كان المبرّد يعلل كل رأي يورده في كتابه و كان يتسع في ذلك سعة جعلته يعمّمه فيما لا حاجة للنّطق به، من ذلك تعليله لمجيء الإعراب في آخر الكلم دون أوائلها و أواسطها، يقول: «لم يجعل الإعراب أوّلا، لأن الأول تلزمه الحركة ضرورة للابتداء لأنه لا يبدأ إلا بمتحرك و لا يوقف إلا على ساكن فلما كانت الحركة تلزمه لم تدخل عليه حركة الإعراب لأن الحركتين لا تجتمعان في حرف واحد. و لما فات وقوعه أوّلا لم يمكن أن يجعل وسطا، لأن أوساط الأسماء مختلفة لأنها تكون ثلاثية و رباعية و خماسية و سباعية، فأوساطها مختلفة فلما فات ذلك جعل آخرا بعد كمال الاسم ببنائه و حركاته». [92]

ج)-**القياس**: احتكم المبرّد إلى القياس بعد الأخذ بالسماع عند العرب و كان يرفض ما قلّ على أكثر ألسنتهم، فقد كان يردّ ما يخالف الكثرة الكثيرة الدائرة في أفواههم و لكن حين لا توجد هذه الكثرة كان يفسح للقياس، و كذلك كان يفسح له حين يشيع استعمال بين العرب، و ليس معنى ذلك أنه كان يقيس على الشاذ و النادر، إنما كان يقيس على ما سمع كثيرا.

---

[89]- الكتاب: 297/2.

[90]- ديوان امرئ القيس- دار صادر- بيروت- ط1-د.ت: 149 و قد ورد بتمامه و لفظه.

فَاليَـــــوْمَ أُسْقَى غَيْرَ مُسْتَحْقَبٍ *** إِثْمًـــا مِنَ اللهِ وَ لاَ وَاغِـــــــــلَ

[91]- الخصائص- تحقيق محمد علي النجار- دار الكتاب العربي- 1371هـ/1956م: 74/1-75.

[92]- المدارس النحوية: 131.

فمن ذلك أن العرب كثر على لسانهم استعمال صيغة فعّال مستغنين بها على ياء النسب كخبّاز و بزّاز و قزّاز و سقّاء و بنّاء و زجّاج و بقّال و خيّاط و نجّار و لبّان، و كذلك استعمال صيغة فاعل كحائك و شاعر أي ذي شعر و فارس أي ذي فرس و طاعم أي ذي طعام. لكن سيبويه كان يرى أن الصيغتين في النسب موقوفتان على السماع، و لا يقاس عليهما شيء و إن كان قد كثر في كلامهم « فلا يقال لصاحب البرّ برّار و لا لصاحب الشعير شعّار و لا لصاحب الدقيق دقّاق و لا لصاحب الفاكهة فكّاه»[93]. بينما المبرّد قاس الصيغتين جميعا، محتجّا بأن ذلك في كلام العرب أكثر من أن يحصى و يستقصى.[94]

و اهتم المبرّد بالتعريف و بالعوامل و المعمولات.

أما التعريف فقد اتخذه في فاتحة كل باب من أبواب كتابه المقتضب من ذلك تعريفه للاسم و بيان العلامة التي تدلّ عليه، يقول: « الاسم ما كان واقعا على معنى نحو رجل و فرس و زيد و عمر و ما أشبهه ذلك، و كل ما دخل عليه حرف من حروف الخفض فهو اسم، فإن امتنع من ذلك فليس باسم».[95]

و العوامل له فيها بعض الآراء المتناثرة منها أن العامل في النعت المنعوت و في عطف البيان متبوعه و في التوكيد المؤكد. و كان سيبويه يذهب إلى أن الواو التي يجرّ بعدها المبتدأ المنكر إنما هي واو العطف و المبتدأ يكون مجرورا بربّ المحذوفة في "و ليل كموج البحر أرخى سدوله" أما المبرّد فذهب إلى أنها ليست عاطفة بل هي حرف جرّ. و كان يسمي اسم كان و أخواتها فاعلاً و مفعولاً.[96]

و تكثر آراؤه في المعمولات، و من ذلك: أن الأخفش كان يذهب إلى أن مذ و منذ حين يليهما اسم مرفوع في مثلا مذيوم الخميس و مذ يومان يكونان طرفين مخبر

93– الكتاب– لسيبويه: 383/3.

94– ينظر المدارس النحوية: 133.

95– المقتضب:231/2.

96– نفسه: 127.

بهما عمّا بعدهما و ذهب المبرّد إلى أنّهما مبتدآن و ما بعدهما خبر. و كان جمهور البصريين يذهب قبله إلى أن اسم لا النافية للجنس إذا كان مثنى أو جمع مذكر ركب معها و بني كما بني مفردها و ذهب المبرّد إلى أنّ اسمها حينئذ يكون معربا لأن لم يعهد فيهما التركيب مع شيء آخر و قال إنه لا يوجد في كلام العرب مثنى و جمع مبنيان.[97]

2-جهوده البلاغية:

ساهم المبرّد في تطور الدرس البلاغي مساهمة جديرة بأن تذكر، و تظهر هذه المساهمة جلية للعيان في كتابه "الكامل" حيث أنه نثر بين دفّتيه عدّة آراء كانت و لا تزال محطّ اهتمام دارسي البلاغة العربية. من هذه الآراء أذكر مبحثين رئيسيين بوّآه مكانة بارزة في تاريخ البلاغة العربية و هما:

المبحث الأول: علم المعاني:

1-أضرب الخبر:

روي عن ابن الأنباري أنّه قال: « ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العبّاس و قال له: إنّي لأجد في كلام العرب حشوًا، فقال له أبو العبّاس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون عبد الله قائم، ثم يقولون: إنّ عبد الله قائم، ثم يقولون: إنّ عبد الله لقائم: فالألفاظ متكرّرة و المعنى واحد. فقال أبو العبّاس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ. فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه، و قولهم: إنّ عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل. و قولهم: إنّ عبد الله لقائم: جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكرّرت الألفاظ لتكرّر المعاني فما أحار الفيلسوف جوابًا».[98]

تمكن المبرد من فهم الاختلاف الواقع في المعاني بين الجمل التي ذكرها الكندي و تحدث عن خبر الجملة الاسمية.

97– ينظر المدارس النحوية: 127.

98– دلائل الإعجاز في علم المعاني– للإمام عبد القاهر الجرجاني صحح أصله علامتا المعقول و المنقول الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية و الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي– علّق عليه محمد رشيد رضاء– دار المعرفة– بيروت– لبنان– ط3– 1422هـ/2001: 209.

إن بدت هذه مسألة نحوية إلاّ أن البلاغيين المتأخرين تنبّهوا إلى قيمة ما اهتدى إليه المبرّد، و ذكروا فضله في فتح بصائرهم على مختلف المعاني التي يؤديها الخبر الواحد إن اختلف جواره اللّغوي. و بذلك أدرجوه ضمن أدق مباحث المعاني و ألطفها و استعملوه حجّة لأهمية النظم في تحديد المعنى .

و بفضل المبرّد أضاف المتأخرون بابا جديدا في علم المعاني سمّوه "أضرب الخبر" و أوجدوا لكل ضرب منه مصطلحا خاصا يوافقه، حيث سمّو الضرب الأول المجرّد من التأكيد ابتدائيا و الضرب الثاني طلبيا و الضرب الثالث إنكاريا.[99]

2- الاستفهام:

أشار المبرّد إلى بعض الصيغ التي خرجت عمّا وضعت له كصيغة الاستفهام مثلا: في قول عبد الله بن معاوية[100]:

أَأَنْتَ أَخِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةٌ *** فَإِنْ عَرَضَتْ أَيْقَنْتُ أَنَّ لاَ أَخَالِيَا

و وقف عندها قائلا: « إنّه تقرير و ليس استفهام و لكن معناه: أنّي قد بلوتك تظهر الإخاء فإذا بدت الحاجة لم أر من إخائك شيئا».[101]

و قال الله عزّ و جلّ: ﴿أأنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[102]، وضّح المبرّد هذه الصيغة فقال: « إنّما هو توبيخ و ليس باستفهام و هو جلّ و عزّ العالم بأن عيسى لم يقله»[103].

[99]- ينظر التفكير البلاغي: 360.
[100]- الموجز في تاريخ البلاغة- لمازن المبارك- دار الفكر- ط2-1400هـ/1979م: 61.
[101]- الكامل: 213/1.
[102]- سورة الأنعام: 116.
[103]- الكامل: 213/1.

3-الالتفات:

تعرض المبرّد للالتفات في تفسيره لقول الله تعالى:﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[104]حيث قال: « كانت المخاطبة للأمّة، ثم صرفت إلى النبيّ صلى الله عليه و سلم إخبارًا عنهم»[105]. و ذكر أمثلة له من كلام العرب فقال: « العرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد و مخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب»[106].

كما في قول عنترة[107]:

شَطَّتْ مَزَارُ العَــــاشِقِينَ فَأَصْبَحَتْ *** عَسِرًا عَلَـــيَّ طِلاَبُكِ ابْنَةَ مَحْرَمٍ

« فكان يحدّث عنها ثم خاطبها ».[108]

و رأي المبرّد في الالتفات بصفة عامة يجري على ما كان مستقرّا عليه منذ كتاب سيبويه.

4-التعقيد اللّفظي:

تحدّث المبرّد عن التعقيد اللّفظي « الذي يترتب عليه خفاء الدلالة على المعنى المراد في الكلام بسبب تأخير الكلمات أو تقديمها عن مواطنها الأصلية، أو بالفصل بين الكلمات التي يجب أن تتجاور و يتصل بعضها ببعض».[109]

و في ذلك يقول: « و من أقبح الضرورة و أهجن الألفاظ و أبعد المعاني قوله:

وَ مَـــا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلاَّ مُمَلَّكًا *** أَبُــــــو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ »[110]

---

[104]– سورة يونس: 22.

[105]– الكامل: 22/3.

[106]– نفسه: 22/3.

[107]– البيت غير موجود في الديوان.

[108]– الكامل: 22/3.

[109]– في تاريخ البلاغة العربية– لعبد العزيز عتيق– دار النهضة العربية– لبنان– ط1– د.ت: 41.

و علّق عليه قائلا: « مدح بهذا الشعر ابراهيم بن هشام بن اسمعيل بن هشام بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم و هو خال هشام بن عبد الملك فقال و ما مثله في الناس إلا مملّكا يعني بالمملّك هشاما أبو أمّ ذلك المملّك أبو هذا الممدوح و لو كان هذا الكلام على وجهه لكان قبيحا و كان يكون إذا وضع الكلام في موضعه أن يقول و ما مثله في الناس حيّ يقاربه إلا مملك أبو أمّ هذا المملّك أبو هذا الممدوح، فدلّ على أنه خاله بهذا اللّفظ البعيد و هجنه بما أوقع فيه من التقديم و التأخير حتى كأن هذا الشعر لم يجتمع في صدر رجل واحد».[111]

المبحث الثاني: علم البديع و البيان:

1-التشبيه:

بذل فيه المبرّد مجهودا شخصيا واضحا، و عمل على تطوير مسائله بكيفية لم نعهدها في الدراسات السابقة، و هو الباب الذي عقده للتشبيه و الذي سأتناوله في الفصل الثاني بالدرس و التحليل.

2-الكناية:

تعرض المبرّد للكناية بالدراسة فقال: « و الكلام يجري على ضروب، فمنه ما يكون في الأصل لنفسه و منه ما يكنّ عنه بغيره و منه ما يقع مثلا فيكون أبلغ من الوصف».[112]

إنّ هذا التعريف لأنواع الكلام يعدّ من الاعتبارات النظرية العامة التي ساهم المبرّد في بلورتها بصياغتها صياغة واعية لم يسبقه إليه أحد.

---

[110]– الكامل: 18/1.
[111]– الكامل: 18/1.
[112]– نفسه: 5/2.

عبّر المبرّد عن الحقيقة بـــ "ما يكون في الأصل لنفسه" و هي عبارة أبلغ من مصطلح "الحقيقة" في التعبير عن المعنى الحقيقي و أقرب منه إلى الوصف اللّغوي الموضوعي لتجرّدها من كل المعاني المنطقية و الأخلاقية التي تلابس مصطلح الحقيقة.

و بالإضافة إلى ذلك تكشف عن الفرق الجوهري بين أصناف التعبير. فمن الكلام ما لا يتجاوز معناه ذاته و لا يشير إلى شيء خارج عنه و عما يدل عليه أصل اللغة. فإدراك المعنى يتم بدون واسطة أو على الأصحّ يتم بواسطة العلامة الموضوعة له في اللغة. فالعلاقة بينه و بين قصد قائله تطابق علاقة لفظه بمعناه.[113]

أما النوع الآخر من الكلام فهو الكلام الذي يخفي كلاما آخر موجودا خارجه قصد إليه المتكلم بطريقة غير مباشرة فجعل الكلام الماثل في النص لفظه و معناه علامة على المعنى الغائب و مسلكا لإدراكه. بمعنى أننا في هذا النوع الثاني من الكلام نعدد الوسائط و نولد ثنائية اللّفظ و المعنى أو الشكل و المضمون بحيث يصبح هذا الأخير وسيلة التعبير لا غايته.[114]

و لقد قسّم المبرّد الكناية إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول[115]: للتعمية و التغطية كقول النابغة الجعدي[116]:

أكنّى بغير اسمها و قد علم الله خفيات كل مكتتم.

النوع الثاني: الرغبة عن اللّفظ الخسيس المفحش، و هو نوع من الكناية الاصطلاحية . قال المبرّد فيه: «و يكون من الكناية، و ذلك أحسنها —الرّغبة عن اللّفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره».[117]

113– ينظر التفكير البلاغي: 352.

114– نفسه: 352.

115– تناول ابن قتيبة هذا النوع من الكناية فقال: أن الدافع إلى الكناية هو الخوف من إظهار الاسم، و لذلك تشتد الحاجة إلى الخفاء و العمل على المداجاة. ينظر: تأويل مشكل القرآن باب الكناية و التعريض.

116– البيت غير موجود في الديوان..

117– الكامل: 6/2.

و قد مثّل المبرّد لها و هو يفسّر قوله تعالى في المسيح ابن مريم و أمه –صلى الله عليهم ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾[118] بقوله: « و إنّما هو كناية عن قضاء الحاجة».[119]

و فسّر قوله تعالى:﴿وَ قَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾[120] بقوله: « و إنما هي كناية عن الفروج و هذا كثير».[121]

النوع الثالث[122]: التفخيم و التعظيم، يقول: « و منه اشتقّت الكنية و هو أن يعظّم الرجل أن يدعى باسمه و وقعت في الكلام على ضربين وقعت في الصبي على جهة التفاؤل بأن يكون له ولد و يدعى بولده كناية عن اسمه، و في الكبير أن ينادى باسم ولده صيانة لاسمه و إنما يقال كني عن كذا بكذا لبعض ما ذكرنا».[123]

و ماعدا هذه الأقسام التي وردت في "الكامل"، ذكر الكناية بلفظها أو ما يفيد معناها في مواطن كثيرة، مركزا على ما جرى على لسان العرب منها تكنيتهم عن المرأة بالبقرة و النعجة.[124]

و خلاصة القول إن الكناية في "الكامل" لم تخرج عن الحدود التي رسمها اللّغويين و علماء البلاغة قبله سواء في شقها اللّغوي أو الاصطلاحي. إلا أنه جمع مسائلها في باب واحد.

و لعل أبرز مظاهر التأثر بأسلافه بقاؤها عنده مرتبطة أشدّ الارتباط بالعامل الأخلاقي و المواضعات الاجتماعية التي كانت سببا في نشأتها، يدل على ذلك استحسانه لضربها الثاني.

---

[118]– سورة المائدة: 75.
[119]– الكامل: 6/2. و يذكر ابن قتيبة أن الكناية في هذه الآية كناية عن الحدث، لأن من أكل لابد أن يحدث.
[120]– سورة فصلت: 21.
[121]– الكامل: 6/2.
[122]– سبق لابن قتيبة أن تناول هذا النوع من الكناية و قال: أن تكنى عن الرجل بالأبوة لتعظمه في المخاطبة بالكنية. ينظر: كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة.
[123]– الكامل: 6/2.
[124]– ينظر: الكامل:166/1–381..

بالإضافة إلى هذه المباحث الرّئيسية سوف أذكر بإيجاز بعض الإشارات البلاغية التي وقف أمامها المبرّد في كتابه "الكامل" و هو يفسر بعض آيات القرآن و ذلك إمّا تصريحا أو تلميحا.

3-صور من المجاز:

تناول المبرّد المجاز في مواضع متفرقة من كتابه الكامل دون أن يفرد له بابا أو يسميه باسمه الاصطلاحي المعروف أو يقصد إليه قصدا، و إنما ذكره استطرادا و تنوعا لأغراض الحديث كما هي عادة المتقدمين من العلماء كالجاحظ و ابن قتيبة.[125]

و من أمثلة المجاز ذكر قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيلِ وَ النَّهَارِ﴾[126]، و **المعنى:** « بَلْ مَكْرُهُمْ فِي اللَّيلِ وَ النَّهَارِ ».[127]

و من نافلة القول: إن هذه الصورة فيها مجاز عقلي، أسند فيها الفعل أو أضيف مصدر إلى غير ما هو له، مما له به ملابسة معتبرة في العلاقات المجازية: و هي هنا – الزمان– فاللّيلة يمكر فيها كما يمكر في النهار، و ينام فيها.

و قال جرير[128]:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلاَنَ فِي السُّرَى *** وَ نِمْتِ،وَ مَا لَيْلُ الْمُطِيِّ بِنَــــائِمِ*

فالمجاز هو في قول الشاعر "و ما ليل المطيّ بنائم" فإسناد النوم إلى ليل المطيّ مجازي غير حقيقي، أن ليل المطيّ لا يحدث فيه النوم على الحقيقة، و إنما يقع فيه الفعل،

---

[125]– ينظر :الكامل: 68/2– 212/1–223.

[126]– سورة سبأ: 33.

[127]– الكامل: 135/1.

[128]– ديوان جرير: دار صادر بيروت–ط1– 1991م: 454.

*– السّرى: سير الليل عامته. ينظر: لسان العرب لابن منظور– دار صادر بيروت لبنان– ط3– 1954م: 381/14.

أي ينام فيه. إذن الليل ليس بنائم إنما هو منوم فيه، و على هذا ففي كلمة "نائم" مجاز عقلي علاقته "المفعولية".

و البلاغيون –بعده– لم يزيدوا شيئا على ما قاله و كذلك من سبقه أو عاصره من الرواد التقوا جميعا عند هذا المعنى في توضيح إسناد الفعل إلى غير ما هو له.

و يذكر المبرّد عدّة آيات يفسرها، و يبيّن ما فيها من مجاز و خاصة المجاز العقلي[129]، و من هذه الصور ما ذكره في قوله تعالى:﴿وَ اسْأَلْ القَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا، وَ العِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[130]. و يسترسل قائلا: « نصب لأنه كان و اسأل أهل القرية »[131]. و يضيف بعض أقوال العرب: « و تقول بنو فلان يطؤهم الطريق تريد أهل الطريق فحذفت أهل فرفعت الطريق لأنه في موضع مرفوع فعل هذا فقس إن شاء الله »[132]، حيث حذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه و أعطى حكمه.

و من صور المجاز المرسل عند المبرّد تفسيره لقوله تعالى حكاية عن نبي الله ابراهيم عليه السلام، قوله تعالى:﴿وَ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾[133] قال « ثناء حسن »[134]، و في تفسيره لقوله تعالى:﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾[135]. قال: « أي أعصر عنبا فيصير إلى هذا الحال»[136]. و هذا طبعا مجاز مرسل و علاقته باعتبار ما يكون.

يلاحظ المتتبع للفظة "مجاز" في كتاب "الكامل" للمبرّد أنّها تدل على "التفسير" أي بنفس المعنى الذي وردت فيه في معاني القرآن للفرّاء و مجاز القرآن لأبي عبيدة

[129]– ينظر: المقتضب: 3/105–162–230– 4/331.
[130]– سورة يوسف: 82.
[131]– الكامل: 1/88.
[132]– نفسه: 1/88.
[133]– سورة الشعراء: 84.
[134]– الكامل: 1/378.
[135]– سورة يوسف: 36.
[136]– الكامل: 3/92.

و غيرهما لأن المجاز بمعناه البلاغي المعروف لنا اليوم لم يكن قد ظهر قبل عصر المبرّد. يوضح ذلك قول المبرّد: « و نذكر آيات من القرآن ربما غلط في مجازها النحويون ».[137]

قال الله عزّ و جلّ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[138]، قال المبرّد: « مجاز الآية أنّ المفعول الأول محذوف، و معناه: يُخَوِّفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ ».[139]

و في القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[140]. قال: « و الشهر لا يغيب عنه أحد، و مجاز الآية: فمن كان منكم شاهدًا بلده في الشهر فليصمه، " فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ " أي فمن كان شاهدا في شهر رمضان فليصمه نصب الظروف و لا نصب المفعول به ».[141]

ما ذهب إليه المبرّد من تفسير الشهادة بالحضور و الإقامة بالبلد غير مسلم به، و إن تابعه عليه جار الله الزمخشري في تفسير الكشاف.[142]

و ذهب جمهور المفسّرين أن المراد من الشّهادة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ رؤية الشّهر –يعني الهلال– لا عدم السّفر– نصّ على ذلك القرطبي و له في المسألة بحث مستفيض[143]. و هو الأرجح لأن حكم المسافر تقدّم قبل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾[144].

4-الاستعارة:

---

[137]– نفسه: 127/4.
[138]– سورة آل عمران: 51.
[139]– الكامل: 127/4.
[140]– سورة البقرة: 185.
[141]– الكامل: 127/4–128.
[142]– الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل– لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي– دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع– ط1–د.ت: 336/1.
[143]– ينظر الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي– اعتنى به و صححه الشيخ هشام سمير البخاري– دار إحياء التراث العربي– بيروت– لبنان– ط1– 1466هـ/2002م: 194/1.
[144]– سورة البقرة: 174.

تحدّث المبرّد عن الاستعارة[145] في تفسيره لكثير من آيات القرآن، و كان رائدا في هذا الدرس من دروس البلاغة القرآنية. و يكفي المبرّد فخرا أنه ممّن مهّدوا للقول بالاستعارة في الحرف[146]، و قد لفت نظره إليها قوله تعالى في سورة طه:﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ، فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ، وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[147]. قال المبرّد في تفسيره لها: « أي "على" و لكّن الجذوع إذا أحاطت دخلت "في" لأنها للوعاء، يقال:"فلانٌ في النخلِ" أي قد أحاط به. قال الشاعر:

هُمْ صَلَبُوا العَبْدِي فِي جِذْعِ نَخْلَةٍ *** فَلاَ عَطَسَتْ شَيْبَانُ إِلاَّ بِأَجْدَعَا »[148]

و قال عزّ و جلّ:﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾[149]، قال: « أي عليه »[150].

و قال تبارك و تعالى:﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾[151]، قال: « أي بأمر الله »[152].

هذه النماذج التي ساقها المبرّد حيث حلّ فيها حرف محل حرف آخر. و جمهور البلاغيين يعدّون هذا التصرف من الاستعارة التصريحية التبعية.

و في تفسيره لقوله تعالى:﴿ وَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[153] ، قال: « و الطّبع أسوأ الطمع و أصله أن القلب يعتاد الخلّة الدّنيئة فتركبه كالحائل بينه و بين الفهم لقبح ما يظهر منه، و هذا مثل و أصله في السيف و ما أشبهه، يقال: طبع السّيف، إذا ركبه صدا يستر حديده و ﴿ وَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ من ذا ».[154]

---

[145]- ينظر: المقتضب: 188/3.
[146]- ينظر: نفسه: 139/4.
[147]- سورة طه: 71.
[148]- الكامل: 97/3-98.
[149]- سورة الطور: 38.
[150]- الكامل: 98/3.
[151]- سورة الرعد: 11.
[152]- الكامل: 98/3.
[153]- سورة التوبة: 9.
[154]- الكامل: 39/4.

هذا كلام المبرد و هو كلام رائع جدّا حيث شبّه الرّين الذي يصيب القلوب فيفسدها و يمنع صفاءها و إدراكها للحق و الإذعان له بالصدأ الذي يكسو السّيوف فيمنع بريقها و حدّتها و يصيبها بالتآكل و التلف، فهو استعارة تصريحية أصلية، و الجامع ما يترتب على كل من المضار و المفاسد، و القرينة استحالة أن يصيب القلوب لصدأ المألوف الذي هو آفة الحديد.

قال الله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[155].

قال المبرّد في تفسير هذه الآية: « فليس معنى "ننجيك" نخلصك، و لكن نلقيك على نجوة من الأرض ببدنك: بدرعك، يدلّ على ذلك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ ».[156]

إن تفسيره لهذه الآية ممكن أن يسلك في صور المجاز، لأن الإنجاء يكون بالسلامة من الهلاك، و ليس هذا بوارد في شأن فرعون "الخروج و الغرق" فيكون تفسير المبرّد الإنجاء بالإلقاء، على هذا وجيها و يكون في التعبير استعارة ساحرة و عظة لمن على شاكلته.

3- مساهماته النقدية:

يجدر بنا و نحن نتحدّث عن إسهامات المبرّد البلاغية أن نشير إلى أنه قد كانت له مساهمات نقدية لما للبلاغة من علاقة وثيقة بالنقد خاصة في ذلك العهد.

من هذه المساهمات آراؤه في بعض الأشعار:

قال: « من ألفاظ العرب البيّنة القريبة المفهمة الحسنة الوصف الجميلة الوصف» [157]

قول الحطيئة[158]:

---

[155]- سورة يونس: 93.

[156]- الكامل: 128/4.

[157]- نفسه: 17/1.

[158]- ديوان الحطيئةمن رواية بن حبيب عن ابن الأعرابي و أبي عمرو الشيباني- شرح أبي سعيد السّكري- دار صادر بيروت-ط1-د.ت: 184 - و قد ورد فيه بغير اللّفظ و اللّفظ بتمامه

وَ ذَاكَ فَتًى إِنْ تَأْتِهِ لِصَنِيعَةٍ *** إِلَى مَالِهِ لاَ تَأْتِهِ بِشَفِيعِ

وَ ذَاكَ فَتًـــــــى إنْ تَأْتِهِ فِي صَنِيعَةٍ *** إِلَـــى مَــــــالِهِ لاَ تَأْتِهِ بِشَفِيعِ

و كذلك قول عنترة[159]:

يُخْبِرْكِ مَــــنْ شَهِدَ الوَقِيعَةَ أَنَّنِـــي *** أَغْشَى الوَغَى وَ أَعِفُّ عِنْدَ المَغْنَمِ

و كما قال زهير[160]:

عَلَـــى مكثَريهِمْ حَقٌ من يَعْتريهِمُ *** وَ عِنْدَ المقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَ البَذْلُ

و ممّا وقع كالإيماء قول الفرزدق[161]:

ضَرَبَتَ عَلَيْكَ العَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا *** وَ قَضَى عَلَيْكَ بِهِ الكِتَابُ المَنَزَّلُ

و يرى المبرّد في قول شاعر[162]:

وَ الشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي السَّوَادِ كَأَنَّهُ *** لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَــــــانِبَيْهِ نَهَــــــارُ

أنه: أوضح معنى و أعرب لفظ و أقرب مأخذ.

و يفضّل قول أبي حيّة النّميري[163]:

رَمَتْنِـــي وَ سِتْرُ اللهِ بَيْنِي وَ بَيْنَهَا *** عَشِيَّةَ أَرْآمِ الكناسِ رَمِيـــــــمُ[*]

---

[159]– ديوان عنترة– دار صادر– بيروت– ط1– 1416هـ–1996م: 25.

[160]– ديوان زهير بن أبي سلمى– دار صادر بيروت: 62.

[161]– ديوان الفرزدق: 155/2– دار صادر للطباعة و النشر بيروت– 1380هـ/1960م.

[162]– الكامل: 18/1.

[163]– نفسه:18/1.

[*]– الكناس: الموضع الذي تأوي إليه الضباء– رميم: اسم جارية.ينظر: لسان العرب: 275/6 – 92/12.

لأنه: « تخلّصه من التكلّف و سلامته من التزيّد و بعده من الاستعانة».[164]
و ممّا يستحسن لفظه و يستغرب معناه و يحمد اختصاره قول أعرابي من بني كلاب[165]:

فَمَنْ يَكُ لَمْ يَغْرَضْ فَإِنِّي وَ نَاقَتِي ***بِحَجْرٍ إِلَى أَهْلِ الحِمـَـى غَرِضَانِ

يَحِنُّ فَتُبْدِي مَـــا بِهَا مِنْ صَبَابَةٍ***وَ أخْفِي الَّذِي لَوْلاَ الأَسَى لَقَضَانِي

و شرحه بقوله: « و أمّا قوله لقضاني فإنما يريد لقضى عليّ الموت ...أخرجه لفصاحته و علمه بجوهر الكلام أحسن مخرج»[166].

و ممّا يستحسن إنشاده من الشعر «لصحّة معناه و جزالة لفظه و كثرة تردّد ضربه من المعاني بين الناس قول ابن ميّادة لرياح بن عثمان بن حيّان المري من مرّة غطفان و كلاهما من مرّة غطفان بقوله في فتنة محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن و كان أشار عليه بأن يعتزل القوم فلم يفعل فقتل»[167]فقال ابن ميّادة[168]:

أَمَرْتُكَ يَـــا رِيَاحُ بِأَمْرِ حَـــزْمٍ *** فَقُلْتَ هَشِيمَةَ مِنْ أَهْـــلِ نَجْدٍ

نَهَيْتُكَ عَنْ رِجَــــالِ مِنْ قُرَيْشٍ *** عَلَى مَحْبُوكَةِ الأَصْلاَبِ جُرْدِ

وَ وَجْدًا مَـــا وَجَدْتُ عَلَى رِيَاحٍ *** وَ مَا أَغْنَيْتُ شَيْئًا غَيْرَ وَجْدِي.

[164]– الكامل: 19/1.
[165]– نفسه: 20/1–21.
[166]– نفسه:21/1.
[167]– الكامل: 28/1.
[168]– الأبيات غير موجودة في الديوان.

المقدمة

بسم الله الذي لا فوز إلا في طاعته، و لا عزّ إلاّ في التذلل لعظمته، و الحمد لله الذي جعل العلم فريضة على كل مسلم، و جعل العربية أشرف لسان، فأنزل كتابه المحكم في أساليبها الحسان، و الصلاة و السلام على أفصح العرب لهجة و أبلغهم حجّة و على آله الأمجاد و صحابته الذين فتحوا البلاد، و نشروا لغة التتريل في الآفاق و حببوها للأعاجم ممن استقامت ألسنتهم على النطق بالضاد.

أما بعد: فإن البلاغة العربية نشأت في العصر الجاهلي و شقّت طريقها نحو النمو و الازدهار إلى أن أصبحت علما له قواعده و ضوابطه، و أحكامه و قوانينه.

و لاشك أن القرآن الكريم قد أثر تأثيرا بالغا في نشأة البلاغة؛ فقد عكف العلماء على دراسته و البحث في سرّ إعجازه حيث قال أبو هلال العسكري « إن أحقّ العلوم بالتعلم هو علم البلاغة و معرفة الفصاحة، و الإنسان إذا أغفل علم البلاغة و أخلّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن، من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف و براعة التركيب، و ما شحنه به من الإيجاز البديع ».

لقد ساهمت طوائف متعددة في صنع تاريخ البلاغة، فكان لكل طائفة اتجاهها المعين، و مشربها الخاص، و لم تكن هذه الاتجاهات متضاربة متنافرة، بقدر ما كانت متضافرة متآخية، تسير في قنوات مختلفة و لكنها في النهاية تصب في مجرى واحد، هو محاولة وضع القواعد البلاغية على أسس واضحة، نهتدي بها في الحكم على النص الأدبي.

من هذه الطوائف المتعددة أذكر طائفة النحاة التي لعبت دورا هاما في تطوير الدرس البلاغي، و من هؤلاء النحاة: محمد بن يزيد النحوي الأزدي المعروف بالمبرّد (285هـ).

كان المبرّد واحدا من أبرز أئمّة البصرة، فهو يمتلك مكانة عظيمة في نفوس معاصريه حيث تأثر بكتاب سيبويه تأثرا عظيما جعله يعدّ نفسه الأمين على النحو البصري بعده.

و رغم اهتمامه بالنحو إلاّ أنه أفاد البلاغة العربية و البيان العربي بالخصوص عندما درس في كتابه الكامل فن التشبيه.

إنّ المبرّد لم يكن أوّل من تحدث عن التشبيه بل عرف قبله عند أبي عبيدة و الفرّاء، و الجاحظ، و ابن قتيبة، لكن أحدا منهم لم يقسمه تلك التقسيمات التي قسمها المبرّد. و لم يخصّص له بابا كما فعل المبرّد.

إنّ المبرّد قدّم لنا مجهودا جبّارا أفاد به البلاغيين بعده، يتمثل في جمع النماذج الشعرية التي تحوي التشبيه في الشعر الجاهلي و الإسلامي و الأموي و حتى العبّاسي المحدث بالنّسبة له.

و الجهد الثاني يتمثل في تقسيم هذه النماذج من التشبيهات إلى أقسام نعتها بمجموعة من الصفات اعتمد فيها على ذوقه الخاص لا غير. منها تشبيهات مصيبة و أخرى مليحة و ثالثة حسنة و غيرها كثير.

و الجهد الثالث نلاحظه عندما نتتبّع شرحه للتّشبيهات الموجودة في القرآن الكريم، حتى إنه نعت بعض تشبيهات القرآن الكريم بمثل ما نعت الأشعار.

إنّ رغبتي في تسليط الضوء على جانب آخر من أبحاث هذا العالم اللّغوي النحوي هي التي دفعتني إلى القيام بهذا البحث المتواضع من أجل إبراز مجهوده البلاغي و إعطائه بعض حقّه إذا استطعت.

و الطريقة التي اتبعتها في دراستي هي ذكر مثالين أو ثلاث أمثلة على الأكثر لكل نوع من الأنواع التي ذكرها المبرد. و لم أتناول كل الأمثلة الواردة في الكامل لكثرتها.

أما الصعوبات التي اعترضتني في هذا البحث فهي أن الكتب التي تناولت التشبيه عند المبرد لم تعلل سبب تسمية المبرد لتلك الأقسام بتلك النعوت و لم تشرح الشواهد التي قدمها لكل قسم.

و من أهم المؤلفات التي ساعدتني على القيام بهذا البحث: التفكير البلاغي عند العرب أسسه و تطوره إلى القرن السادس لحمادي صمود، و أثر القرآن في تطور النقد الأدبي لمحمد زغلول سلام ، و الصورة الفنّية في التراث النقدي و البلاغي لجابر عصفور، أثر النحاة في البحث البلاغي لعبد القادر حسين، و غيرهم.

أمّا المنهج الذي اخترته في دراستي فهو المنهج الوصفي لأنني بصدد دراسة ظاهرة بيانية شاع استعمالها عند الشعراء و الأدباء و نالت الاهتمام الوافر منهم.

كما استعنت بالمنهج التاريخي و ذلك عند تناولي لحياة المبرّد و عند تتبعي لتاريخ التشبيه قبله.

و لقد قسّمت موضوع بحثي إلى مدخل و ثلاثة فصول؛ ففي المدخل تعرضت لشخصية المبرد: حياته، و سبب تلقيبه بالمبرد، و صفاته، و تلامذته، و ثقافته، و مكانته العلمية، و مؤلفاته. و كذلك جهوده النحوية و البلاغية.

و بما أن فنّ التشبيه تناوله العديد من النحويين و اللغويين قبل المبرّد فإنني في الفصل الأول من بحثي ألقيت الضوء على التشبيه عند السابقين للمبرد كسيبويه، و أبي عبيدة، و الفرّاء، و الجاحظ، و ابن قتيبة.

و تطرقت في الفصل الثاني إلى التشبيه عند المبرد بدراسة كل الأقسام التي تناولها في مؤلفه "لكامل".

أما في الفصل الثالث فحاولت إظهار أثر المبرد في المتأخرين و خصصت بالذكر: ابن المعتز و قدامة بن جعفر و عبد القاهر الجرجاني و الخطيب القزويني.

و ختمت بحثي بخاتمة ضمنتها مجموعة من الملاحظات و النتائج التي توصلت إليها.

و لا يسعني في الأخير إلاّ أن أسأل الله أن يتقبّل منّي هذا العمل المتواضع خالصا لوجهه الكريم فإن أصبت فمنه عزّ و جلّ و إن أخطأت فمن نفسي،

و الكمال لله عزّ و جلّ و لكل شيء ما سواه نقصان و قد صدق الشاعر "أبو البقاء الرندي" حين قال:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ * فَلاَ يُغَرُّ بِطِيبِ العَيْشِ إِنْسَانُ**

بـــــــن حـــــدو وهيبة

ت
ل
س
ا
ن

في
:

3

جـ
ا
د
ى

ا
لأ
و
ل

1
4
2
7
ه
ـ

الموافق لـــ **30** ماي **2006**م.

الفصل الأول

التشبيه قبل المبرّد

الفصل الأول : التشبيه قبل المبرد

تمهيد:

عني الباحثون بدراسة التشبيه عناية واضحة نلحظها عند تصفح كتب التفسير و الأدب و الشعر و اللّغة، و هذا الاهتمام راجع إلى شيوع هذا اللون البياني و جريانها في فنون الكلام فضلاً عن وجودها في القرآن الكريم و أحاديث الرسول –صلى الله عليه و سلم– بالإضافة إلى أنها أكثر الأنواع البلاغية جذبا للانتباه و إثارة للإعجاب.

و لا غرابة أن يكون التشبيه من أكثر الصور الفنية حظوة لدى المتقدمين و المتأخرين أيضا، فالشعر العربي القديم يعجّ به، و هو عند النقاد و العلماء من مقاييس الجودة الرئيسية، و لم يكن الشعراء أنفسهم يشذّون عن هذا فقد « قيل لبشار: بم فقت أهل عمرك و سبقت أبناء عصرك في حسن معاني الشعر و تهذيب ألفاظه؛ قال: لأني لم أقبل كلّ ما تورده على قريحتي و يناجيني به طبعي و يبعثه فكري و نظرت إلى مغارس الفطن و معادن الحقائق و لطائف التشبيهات فسرت إليها بفكر جيّد... ».[1]

و لقد اقترنت البراعة في صياغة التشبيه لدى بعض الشعراء الأوائل بالبراعة في نظم الشعر نفسه حيث وردت روايات كثيرة تصب في هذا المعنى من بينها ما روي عن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت–و كان صبيّا– جاء إلى أبيه باكيا يقول: « لَسَعَنِي طائر! قال: فصفه لي يا بنيّ! قال: كأنه ثوب حبرة. قال حسّان: قال ابني الشعر و ربّ الكعبة. و كان الذي لسعه زنبور».[2]

و يعتبر نزول القرآن الباعث الأول لظهور حركة التأليف إذ كان ظهور أول كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت209هـ) سببه مسألة التشبيه الواردة في الآية الكريمة: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾.[3]

1- العمدة في محاسن الشعر و آدابه- للإمام أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني- تحقيق محمد قرقزان- دار المعرفة- بيروت- ط1-1987: 239/2.

2- كتاب الحيوان للجاحظ- تحقيق و شرح عبد السلام هارون- دار الجيل- بيروت- ط1- 1416هـ/1996م:65/3.

3- سورة الصافات: 65.

و بهذا يعدّ التشبيه من المصطلحات الأولى التي عرفتها البلاغة العربية و أقدم ما وصلنا فيه جاء في "كتاب" سيبويه و "مجاز القرآن" لأبي عبيدة و "معاني القرآن" للفرّاء و كتابي "البيان و التبيين و الحيوان" للجاحظ و "الشعر و الشعراء" لابن قتيبة، و تعد هذه المؤلفات اللّبنة الأولى التي تركزت عليها مباحث القرون اللاّحقة.

و قبل الخوض في دراسة التشبيه عند هؤلاء، ارتأيت أن أتعرض لنقطة هامة صادفتني أثناء البحث، و هي: هل مصطلح التشبيه عربيّ الأصل أم أنّه مستمد من بلاغة أرسطو؟.

تحجّج البعض بأن أصل التشبيه راجع إلى اليونان، لأن أرسطو هو من أورد عبارة (كرّأسدًا) أو (كرّ كالأسد) للتفرقة بين المجاز و التشبيه في كتابه الخطابة، و أن النحاة و اللّغويين العرب أخذوها عنه؛ لكن كتاب الخطابة لأرسطو لم يترجم قبل سنة 260هـ على أقرب الاحتمالات، أضف إلى ذلك أن أحدا من هؤلاء البلاغيين المتقدمين لم ترد عنده عبارة (كرّ زيدٌ أسدًا) مطلقا، على حين نجد عبارة أخرى كثيرة الدوران على ألسنة النحويين منذ أن أوردها سيبويه، الذي عرف بدقّة حفظه لأقوال العرب و احتجاجه بكلام الفصحاء[4]، حيث قال: « تقول مررت برجل أسَد أبوه إذا كنت تريد أن تجعله شديدا، و مررت برجل مثل الأسد إذا كنت تشبهه».[5]

أولا: التشبيه عند سيبويه (ت 180هـ):

يعدّ كتاب سيبويه أوّل كتاب ورد فيه مصطلح التشبيه بمعناه البلاغي المعروف، حيث تحدث عنه ضمن باب استعمال الفعل في اللّفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام و الإيجاز و الاختصار، فقال: « و مثله في الاتساع قوله عزّ و جلّ: ﴿وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَ نِدَاءً﴾[6]، فلم يشبّهوا بما ينعق، و إنّما

---

[4]- ينظر البلاغة العربية في فنونها- محمد علي سلطاني- مطبعة زيد بن ثابت-ط1-1979-1980:106.
[5]- الكتاب- لسيبويه: 28/2.
[6]- سورة البقرة: 171.

شبهوا بالمنعوق به. و إنّما المعنى: مَثَلُكُمْ و مثل الّذين كفروا كمثل النّاعق و المنعوق به الّذي لا يسمع، و لكنّه جاء على سعة الكلام و الإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى».[7]

كما أنّه لم يفته الحديث عن بعض أدوات التشبيه، فقال في **باب آخر من أبواب إنّ** متحدّثا عن كأنّ « و سألت الخليل عن كأنّ، فزعم أنّها إن لحقتها الكاف للتشبيه، و لكنّها صارت مع إنّ بمنزلة كلمة واحدة»[8]. و في **باب ما جرى مجرى كم في الاستفهام** يذكر أن الكاف هي التي تنقل معنى التشبيه إلى أنّ فتصير بمنزلة شيء واحد إذ يقول: « و إنّما تجيء الكاف للتشبيه، فتصير و ما بعدها بمنزلة شيء واحد، و من ذلك قولك: كأنّ، أدخلت الكاف على أنّ للتشبيه».[9]

و تنبّه سيبويه للكاف و إفادتها للتشبيه، فقال في **باب الجر**: « و إذا قلت: أنت كعبد الله، فقد أضفت إلى عبد الله الشبه بالكاف».[10]

ثم أورد شاهدين من كلام العرب يدلان على أنّهم جعلوا الكاف في أشعارهم بمنزل مثل فقال: «إلاّ أنّ ناسًا من العرب إذا اضطرّوا في الشعر جعلوها بمنزلة مثل، قال الراجز– و هو حُمَيْدُ الأرقط– "فَصُيِّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأكُول"* .و قال خِطَامُ المُجَاشِعِي:"وَ صَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْثَفَيْنَ"** ».[11]

و قد لمّح سيبويه إلى ركني التشبيه و وجه الشبه في **باب صار الفاعل فيه بمنزلة الذي فعل في المعنى، و ما يعمل فيه** فقال: « و قد يشبّهون الشيء بالشيء و ليس مثله في جميع أحواله».[12]

---

[7]– الكتاب– لسيبويه: 212/1.
[8]– نفسه: 151/3.
[9]– نفسه: 171/2.
[10]– نفسه: 421/1.
* – الشاهد فيه إدخال "مثل" على الكاف لأن الكاف بمعنى مثل، و التقدير مثل مثل عصف، و جاز التكرار لاختلاف اللفظين.
** – و شاهده استعمال الكاف الثانية موضع "مثل" .و التقدير: ككما يؤثفين أي كمثل حالها إذا كانت أثافي مستعملة. صاليات: أثافي القدر لأنها صليت نارا. الأثافي: الحجر الذي يوضع عليه القدر. ينظر: لسان العرب: 205/14 – 3/9.
[11]– الكتاب: 408/1.
[12]– نفسه: 182/1.

بالإضافة إلى ذلك ذكر طريقة التشبيه المعتمد على البدل أو المصدر المنصوب، فقال في **باب ما شبّه من الأماكن المختصّة بالمكان غير المختص**: «و قد زعم يونس أن ناسًا يقولون: هو منّي مَزْجَرُ الكَلْبِ، يجعلونه بمترلة مرأى و مسمع. و كذلك مَقْعَدٌ وَ مَنَاطٌ، يجعلونه هو الأوّل فيجري كقول الشاعر:

وَ أَنْتَ مَكَـــــانُكَ مِنْ وَائـــــلٍ *** مَكَـــانَ القِرَادِ مَنْ أَسَتِ الجَمَلْ *

و إنما حسن الرفع هنا لأنه جعل الآخر هو الأول، كقولك: له رأسٌ رأسُ الحمار، و لو جعل الآخر ظرفا جاز، و لكنّ الشاعر أراد أن يشبّه مكانه بذلك المكان».[13]

و من شواهد التشبيه المعتمد على المصدر المنصوب ذكر سيبويه أنكّ تقول: « مررت به فإذا له صوتٌ صوتَ حمار، و مررت به فإذا له صراخٌ صراخُ الثّكلى »[14]. قال الشاعر و هو النابغة الذبياني[15]:

مَقْـــذُوفَةٍ بِدَخِيسِ النَّحْضِ بَازِلُهَا *** لَهُ صَرِيفٌ صَرِيفَ القَعْوِ بِالمَسَـــدِ*

و يضيف في موضع آخر: « يدلّك على ذلك أنك لو أدخلت "مثل" ههنا كان حسنا و كان نصبا، فإذا أخرجت "مثل" قام المصدر النكرة مقام مثل، لأنّه مثله نكرة، فدخول مثل يدلّك على أنّه تشبيه. فإذا قلت: فإذا هو يصوّت صوت حمار، فإن شئت نصبت على أنه مثال وقع عليه الصوت».[16]

* – القراد ذويبة تعض الإبل، جعل مكانه من وائل شبيها بمكان القراد من أست الجمل في الخسّة و الدناءة. ينظر: لسان العرب: 348/3.

[13]– الكتاب: 416/1– 417.

[14]– نفسه: 355/1.

[15]– ديوان النابغة الذبياني– تحقيق كرم البستاني– دار صادر بيروت– لبنان–ط1– د.ت: 31.

*– النحض اللحم– الدخيس، ما تداخل منه و تراكب– البازل: السن تخرج عند بلوغ الناقة التاسع من عمرها. مقذوفة: مرمية. الصريف: صوت أنيابها إذا حكّت بعضها ببعض نشاطا. القعو: ما تدور عليها البكرة إذا كان من خشب– المسد: حبل من ليف أو جلد. وصف الشاعر الناقة بالقوة و النشاط. ينظر: لسان العرب: 236/7– 77/6–324/11–191/9–324/14–406/3.

[16]– الكتاب: 360/1.

كما أنّ قول الشاعر "له صريفٌ صريفَ القعو" يجري هذا المجرى و يأخذ هذا الحكم و هو نصب "صريف" الثانية على المصدر التشبيهي. و لو قلنا: "و له صريفٌ مثل صريفِ القعو" لكان الكلام حسنا مستقيما. بينما رأى الخليل أنّه يجوز لنا القول: « صوتٌ صوتُ الحمار على الصفة لأنّه تشبيه».[17]

و أضاف أنه يمكن لنا أن نقول: «هذا رجلٌ أخو زيدٍ، إذا أردت أن تشبّهه بأخي زيدٍ، و هذا قبيح ضعيفٌ لا يجوز إلاّ في موضع الاضطرار».[18]

و مجمل القول إنّ سيبويه عالج التشبيه معالجةً بسيطة و تناوله على أنّه أسلوب في التعبير لا غير، كما أنّه أشار إلى الأسلوب و بعض أدواته مجرّدًا عن كلّ تعمق في وظيفته و أثره الفنّي ملتبسا بقضايا الإعراب.

ثانيا: التشبيه عند الفراء (ت 207هـ):

يأتي الفراء في مقدمة من اهتم بالمسائل البيانية حيث تضمن كتابة "معاني القرآن" -الذي عني فيه بتأويل و تفسير، أي الذكر الحكيم مع شرح ما في الآيات من الغريب و الإعراب و القراءات شروحًا مختلفة، الإشارة إلى بعض الصور البيانية من بينها التشبيه و المثل « و هذان اللّفظان أيضًا من أوّل الاصطلاحات التي بدأت تظهر في الدراسات القرآنية دالة على صور بيانية، لكنّها لا تزال عند الفرّاء تطلق في حدود المعنى اللّغوي و إن كانت تشير إلى المعنى البلاغي».[19]

و لقد تناول الفراء التشبيه و المثل عند تفسيره لآيات من القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾[20] حيث قال: « "و في الإنجيل أيضا" كمثلهم في القرآن، و يقال﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ و ﴿وَ مَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ و شطؤه السنبلة، تنبتُ الواحدة عشرًا و ثمانية و سبعة فيقوّي بعضه

---

[17]- الكتاب: 361/1.
[18]- نفسه: 361/1.
[19]- أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري- محمد زغلول سلام- قدم له محمد خلف الله أحمد- مكتبة الشباب- ط1: 56.
[20]- سورة الفتح: 29.

بعضًا، فذلك قوله فآزره، و قواه فاستغلظ ذلك فاستوى، و لو كانت واحدة لم تقم على ساق، و هو مثل ضربه الله عزّ و جلّ للنبي –صلى الله عليه و سلم- إذ أخرج وحده ثم قوّاه الله بأصحابه كما قوّى الحبة بما نبت فيها». [21]

فسّر الفراء هذه الآية بنقل قول المفسرين في مثل القرآن، و هو القول القديم الذي لم يحدّد فيه دور التشبيه في البيان، و لم توضع أصوله أو تفرد أركانه.

بينما نجده قد فهم دور التشبيه في التعبير عندما فسّر قوله تعالى ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [22] بقوله: «أراد بالوردة الغَرْسَ، و الوردة تكون في الربيع إلى الصفرة أميل، فإذا اشتدّ البرد كانت وردية حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة أميل، فشبّه تلون السّماء بتلون الوردة، و شبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدّهن و اختلاف ألوانه. و يقال إنّ الدّهان الأديم الأحمر». [23]

إنّ تفسير الفرّاء للآية يدلّ على أنّه أجاد إدراك التشبيه بأقسامه، و عرف أنّه مركب هنا من قسمين أو صورتين متعاقبتين صورة السماء منشقّة، و صورة الوردة ثمّ صورة الدّهان. و الصورتان الأخيرتان « مركبتان لتوضيح وجه الشبه، و الفراء يوضح معنى المشبه به في هاتين الصورتين، فيوضح معنى الوردة و ينبه إلى وجه الشبه و هو أحوال تلونها، فهي في الربيع صفراء، و في الشتاء حمراء، ثم غبراء داكنة عند الذبول، و هذا التلون التدريجي من اللون الناصع إلى الدّاكن يشبه أيضا لون الدّهن و قد عملت فيه النار فاشتعل بلون أصفر ثم بدت ألسنته محمرة إذ آذن بالانطفاء ثم يتحوّل إلى رماد داكن». [24]

[21]– معاني القرآن–الفراء أبي زكريا– يحي بن زياد– علم الكتب– ط3– 1973م: 70.
[22]– سورة الرحمن: 37.
[23]– معاني القرآن: 70.
[24]– أثر القرآن في تطور النقد العربي: 57.

يقول سعيد بن جبير[25] و قتادة[26]: « المعنى فكانت حمراء، و قيل المعنى تصير في حمرة للوردة و جريان الدّهن، أي تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، و تصير مثل الدّهن لرقّتها و ذوبانها».[27]

و فسّر الفراءُ آية ثالثة وضّح فيها التشبيه مبيّنا أركانه و هي قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[28]، حيث بدأ بتفسير الغريب أولا ثم وضّح العلاقة بين المشبّه و المشبّه به و وجه الشّبه فقال: « ... و السّفر واحد الأسفار، و هي الكتب العظام، شبّه اليهود و من لم يسلم –إذ لم ينتفعوا بالتوراة و الإنجيل و هما دليلان على النبي – صلى الله عليه و سلم- بالحمار الذي يحمل كتب العلم و لا يدري ما عليه».[29]

إنّ الفرّاء قد حاول فهم التشبيه لكن محاولته تلك « يعوزها الدقّة لأنّها محاولة مادية أغفلت الجانب النفسي، و هو المدار الذي يدور حوله التشبيه في الآيات، فالتشبيه الأوّل رسم صورة نفسية للنبي و الصحابة في موقف من مواقف الشدّة و الأذى لها ظلال و ألوان تنسجم كلّ الانسجام مع الموقف كلّه... و صورة التشبيه الثانية ترسم لوحة لمنظر من مناظر يوم القيامة، يثير الذعر و الهلع، فهناك سماء تنشقّ و تتصدّع، و هناك لون أحمر مزعج، و هناك دهن يجري، و تلك عناصر من عناصر الصورة التي توحي بالخوف و القلق و معاودة النّفس من الكفّار في شأن الإيمان بالله، و التصديق بنبوّة النبيّ».[30]

---

[25]- سعيد بن جبير الأسدي الكوفي، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس و بن عمر- ولد سنة 45هـ/665م و قتله الحجاج بواسط سنة 95هـ/714م. قال الإمام أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيدا و ما على وجه الأرض أحد إلا و هو مفتقر إلى علمه. ينظر: الأعلام- قاموس تراجم- خير الدين الزركلي- دار العلم للملايين- بيروت- لبنان- ط7- 1986م: 145/3.

[26]- قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزير، أبو الخطاب السدوسي البصري- مفسر حافظ ضرير أكمه- ولد سنة 61هـ/680م و توفي سنة 118هـ/736م. قال الإمام أحمد بن حنبل عنه: قتادة أحفظ أهل البصرة: 189/5.

[27]- الجامع لأحكام القرآن- للقرطبي: 115/9.

[28]- سورة الجمعة: 05.

[29]- أثر القرآن في تطور النقد العربي: 56.

[30]- بلاغة القرآن بين الفن و التاريخ- دراسة تاريخية فنية مقارنة- فتحي أحمد عامر- منشأة المعارف بالاسكندرية- ط1: 22

أمّا الصورة الثالثة فيرسم موقفا من مواقف الجهل، «فالجاهل بالتوراة حيث لم يعمل بما جاء فيها من إثبات نبوة النبي-صلى الله عليه و سلم- و الإيمان برسالته، و العالم الذي يحمل زاد العلم الكثير بين جوانبه، و في قلبه و لا يعمل شيئًا يفيد نفسه و مجتمعه و الآخرين بعلمه، كل ذلك حمار بليد الحسّ، يسام الخسف و الهوان، فلا يتأثر، فإذا حمل بعد هذه الجبلة التي ركبت فيها أوعية العلوم فكيف يفيد منها، و ما السبيل لتأثّره بها».[31]

ثالثا: التشبيه عند أبي عبيدة (ت 209هـ):

استخدم أبو عبيدة بعض المصطلحات البلاغية التي تتصل بعلم البيان في كتابه المشهور "مجاز القرآن" من بينها التشبيه. و يجدر بنا أن ننوّه في هذا المقام أن كتابه هذا ألّف بسبب مسألة تتعلق بالتشبيه –كما سبق الذكر- حيث أنه « كان في مجلس الفضل بن الربيع، فقال له ابراهيم بن اسماعيل الكاتب: قد سألت مسألة! أفتأذن لي أن أعرّفك إيّاها؟ فقال أبو عبيدة: هات، قال ابراهيم: قال الله عزّ و جلّ: ﴿وَ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[32]. و إنّما يقع الوعد و الإيعاد بما عرف مثله، و هذا لم يعرف، فقال أبو عبيدة: إنّما كلّم الله تعالى العرب على قدر كلامهم. أما سمعت قول امرئ القيس[33]:

أَيَقْتُلِنـــي وَ المَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِـــي *** وَ مَسْنُـــونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

و هم لم يروا الغول قط، و لكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به! فاستحسن الفضل ذلك، و استحسنه السائل».[34]

[31]- بلاغة القرآن بينت الفن و التاريخ: 23.
[32]- سورة الصافات: 65.
[33]-ديوان امرئ القيس: 142.
[34]-معجم الأدباء: 159/19.

و لقد وردت كلمة التشبيه في كتابه "مجاز القرآن" و لكنّها « لا تعدو المباحث المتعلقة بها بعض الإشارات المتفرقة، يكتفي المؤلف بذكر الوجه مجرّدًا من كلّ دراسة لأسسه و أبعاده الفنيّة، بل إنّنا لا نصادف تعريفا له أو حديثا عن أقسامه و أنواعه».[35]

و لقد قرنه تارة بمصطلح "الكناية" و أخرى بمصطلح "التمثيل" أو المثل. حيث فسّر قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾[36] بقوله: «كناية و تشبيه»[37]. و واضح أن الآية صورة من صور التشبيه التي أطلق عليه البلاغيون اسم التشبيه البليغ، و هو الذي حذف منه وجه الشبه و أداة التشبيه.

بينما فسّر قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[38]بقوله: «مجاز تمثيل لأن ما بناه على التقوى أثبت أساسا من البناء الذي بنوه على الكفر و النفاق، و هو على شفا جرف، و هو ما يجرف من سيول الأودية فلا يثبت البناء عليه».[39]

و بهذا فإن الصورة الظاهرة أكثر من غيرها هي الصورة المركبة، فقد ذكرها بمصطلحها "التمثيل" و حاول أن يشرحها و نتيجة لهذا الشرح يمكن أن نقول أن أبا عبيدة عرّف التشبيه و التمثيل على أنّهما « لونين من ألوان التعبير، و لم يهتم في الآية بكلمة "هائر" وحدها بل اهتم بالصورة البيانية بتمامها. و فهمه للصورة البيانية بوجه عام لا يتعدى الفهم اللّغوي، فهو يتعرض لكل الفنون البيانية المتعلقة بالأسلوب، و يعتبرها من المجاز اللّغوي».[40]

و إذا كان أبو عبيدة لم يتوسّع في تفصيل البحوث البيانية-منها التشبيه- فلأنه « ألّفه في وقت مبكر نسبيّا، و كان عام ثمانية و ثمانين و مائة من الهجرة النبوية. و يعتبر

---

[35]- التفكير البلاغي عند العرب: 92.

[36]- سورة البقرة: 223.

[37]- مجاز القرآن- أبو عبيدة معمر بن المثنى التميم- تحقيق محمد فؤاد سركين- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط2- 1981: 229.

[38]- سورة التوبة: 109.

[39]- مجاز القرآن: 269.

[40]- أثر القرآن في تطور النقد العربي: 47.

هذا الكتاب مرحلة أولية من مراحل الكشف عن إعجاز القرآن و بلاغته، كما يعتبر مرجعا لكثير من الدراسات اللّغوية و الأدبيّة التي تلت».[41]

بالإضافة إلى ذلك فهو عمل خطير ينم عن وعي مؤلفه بقضايا جوهرية في الدراسات البلاغية تتصل بمستويات اللّغة، و خطوة هامة في التأليف و التصنيف لن نلحظها عند من جاء قبله أو عاصره كسيبويه و الفرّاء.

و تعدّ مساهمة أبي عبيدة في مسألة التّشبيه، أهمّ ما وصلنا عند هذه الفترة خاصة إذا تفحّصنا كتابه الموسوم "النقائض بين جرير و الفرزدق" الذي على الرغم من خلوّه من دراسة نظرية لقضية التشبيه، إذ منهجه الأدبي اللّغوي التطبيقي لا يسمح بذلك إلاّ أنّه احتوى على مجموعة من الإشارات الهامّة تكوّن متى جمعت النواة الأولى لهذا المبحث[42].

تعرّض أبو عبيدة في هذا الكتاب لطرفي التشبيه و وجه الشبه بل تجاوز ذلك إلى الحديث عن المعنى الكامن وراء التشبيه من ذلك تعليقه على بيت « البعيث:

فَأَلْقَـــى عَصَـــا طَلْحَ وَ نَعْلاً كَأَنَّهَا *** جَنَـــــاحُ سُمَانَى صَدْرُهَا قَدْ تَخَدَّمَا[*]

بقوله:"يريد أنه راعٍ و أنّ سلاحه عصًا، و شبه نعله بجناح سماني في دقتها و صغرها، يقول إنّه غير تام الخلق"».[43]

كما تحدّث أيضا عما سمّي فيما بعد التشبيه المقيد بالصّفة أو تشبيه التمثيل الذي يقوم على التقريب بين صورتين و ذلك حين «علّق على بيت الفرزدق:

يَمْشُونَ فِي حَلْقِ الَحدِيدِ كَمَا مَشَتْ *** جُرْبُ الجَمَالِ بِهَـــا الكُحَيْلُ المُشْعَلُ

[41]– التعبير الفني في القرآن– لد: بكري شيخ أمين– دار العلم للملايين– بيروت– لبنان– ط6– 2001م :150.
[42]– التفكير البلاغي:124.
[*]– سماني: طائر. لسان العرب: 220/13.
[43]– التفكير البلاغي: 124.

قائلا:"الكحيل القطران، و حلق الحديد الدروع، شبه الرجال لعظمهم و لون الحديد عليهم بالجمال المهنوة بالقطران"».[44]

فالفرزدق شبه الرجال في دروع الزرد بالجمال الجرب، و هذا من التشبيه البعيد، لأنه إن أراد السواد فلا مقاربة بينهما في اللون لأن لون الحديد أبيض، و من أجل ذلك سمّيت السيوف بالبيض.

رابعا: التشبيه عند الجاحظ (ت 255هـ):

ما كاد القرن الثالث يأخذ في المضي حتى ظهر الجاحظ و قد تجرّد لدرس شؤون البيان و البلاغة و وضع كتابيه "البيان و التبيين" و "الحيوان" اللّذين يعتبران من أشهر مؤلفات الجاحظ إطلاقا و أنطقها حجّة لثقافة صاحبها الواسعة و تعدّد اهتماماته لكثرة مواهبه، فإليهما يدين بشهرته العلمية و منهجيته العقلية.

إلاّ أنّه رغم غزارة المادّة المتجمعة لديه لم يوفق دائما في سياستها و ترويضها و « لم يحض البحث البلاغي بكتاب مستقل يجمع مسائله و يبوّبها، و اكتفى بإدراجه في ثنايا مؤلفاته بنسب متفاوتة تتحكم فيها ضرورات البحث و محركاته، فجاء في صورة ملاحظات و تعليقات متناثرة لا يوحّد بينها أحيانا، إلاّ السياق الأدبي العام و اهتمام المؤلّف بأفانين القول و صوره و طرقه و مردّ ذلك أساسا أن التفكير البلاغي... كان إلى عهده في طور نشأته الأولى لم يشتدّ منه إلاّ النّزر القليل».[45]

و كان حظّ التشبيه كحظّ كل الفنون البلاغية، إذ ورد عنده منثورا بين دفّتي كتابيه يجد الباحث عنه عناءً ليصل إليه و يتلمّسه.

و حديث الجاحظ عن التشبيه في كتابه الحيوان « أغنى و أغزر من حديثه عنها في "البيان و التبيين"، ذلك لأنّه عرض فيه لتأويل بعض آي الذكر الحكيم رادّا عن

---

[44]–التفكير البلاغي:125.

[45]– نفسه: 144.

مطاعن الملاحدة و ما كانوا يثيرون من شبهات حولها، بسبب جهلهم بوجوه التعبير الأدبي في العربية و دلالات صوره البلاغية».[46]

و الجاحظ معتزلي المذهب لذا نظر إلى التشبيه على أنّه « مجرّد صور ذهنية للتعبير عن المعنى المراد، و توضيحه في الأذهان، في قالب يمكن إدراكه بالحسّ، و ذلك بتشكيله في صور المدركات الحسّية، و هذا كلّه -كما يراه الجاحظ – منطبق على صفات الله تعالى، و اليوم الآخر، و مشاهد القيامة، و الجنّة و النار، و صفات العذاب و النعيم المختلفة، و إذا كان القدماء من أمثال "الفرّاء" قد خرّجوا معناها تخريجا لغويّا، لم يوضح الصور البيانية ».[47]

فإن الجاحظ يميل في بسط الصورة إلى التجريد « فيبتعد بالصورة الفنية عن الشكل الظاهري، بما له من دلالات مادية، إلى المعنى العام المقصود وراء الشكل أو الصورة. و أكثر ما يظهر هذا الأمر، فيما جاء في القرآن الكريم من أعداد، فالعدد – في نظره- لا يحمل في القرآن معنى التحديد الكمي، الذي يدلّ على لفظ: السَّبع، أو العَشْر، أو التسْعة عشَر، إنّما هذا العدد يقصد منه الإشارة إلى التعدد و الكثرة».[48]

إن ثقافة الجاحظ الواسعة و قدرته على الفهم و الاستيعاب و التحليل و التدليل جعلته يقف طويلا أمام تشبيهات القرآن الكريم، من ذلك وقوفه أمام التشبيه الذي اعترض عليه بعض المعترضين، و هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ، وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾[49] فقال فيه: « فزعموا أنّ هذا المثل لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام، لأنه قال: ﴿وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾

[46]- البلاغة تطور و تاريخ- شوقي ضيف- دار المعارف- ط7- 1965: 55.
[47]- المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها و تطورها حتى القرن السابع الهجري- أحمد جمال العمري- مكتبة الخانجي- القاهرة- ط1- 1410هـ/1990م: 98.
[48]- نفسه: 98.
[49]- سورة الأعراف: 175-176.

فما يشبه حال من أعطى شيئا فلم يقبله –و لم يذكر غير ذلك– بالكلب الذي إن حملت عليه نبح و ولّى ذاهبا، و إن تركته شدّ عليك و نبح. مع أنّ قوله يلهث لم يقع في موضعه، و إنّما يلهث الكلب من عطش شديد، و حرّ شديد، و من تعب، و أما النباح و الصياح فمن شيء آخر.

قلنا له: « إن قال: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فقد يستقيم أن يكون الراد لا يسمى مكذّبا، و لا يقال لهم كذبوا إلاّ و قد كان ذلك منهم مرارا، فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذي أوتي الآيات و الأعاجيب، و البرهانات و الكرامات، في بدء حرصه عليها، و طلبه لها بالكلب في حرصه و طلبه، فإنّ الكلب يعطي الجدّ و الجهد من نفسه في كلّ حالة من الحالات، و شبه رفضه و قذفه لها من يديه، و ردّه لها بعد الحرص عليها، و فرط الرغبة فيها بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له، و واجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفسية، في وزن طلبها و الحرص عليها.

و الكلب إذا أتعب نفسه في شدّة النباح مقبلا إليك و مدبرًا عنك لهث و اعتراه عند التعب و العطش».[50]

إنّ تحليل الجاحظ للتشبيه في الآية يدلّ على أنّه بذل جهدا في استخراج وجه الشبه و بين الغرض منه ليجعله سهلا في متناول العقول فلا تكون لهم حجة على بيان القرآن و ما ادعى عليه من اضطراب في الصورة البيانية– كما ادعى من تولى الجاحظ الردّ عليه–، و قد تنبّه إلى « دقّة القرآن في التشبيه بالخصائص المشهورة للمشبه به، و حاول – موفقا– أن يكشف عن بعض ما وقع فيه الناس من غموض دعى إلى التساؤل عن وجه الشبه ».[51]

و قد لاحظ بعض الباحثين في هذا المثال دلالة على معرفة العلماء في عصر الجاحظ للتشبيه و وجوهه و وجه الشبه و صورة تحققه في الشبه.

---

[50]– الحيوان: 2/16–17.

[51]– أثر القرآن في النقد العربي: 88/89.

و لقد تنبّه الجاحظ إلى الناحية النفسية في التشبيه فكشفها « في دقّة محكمة فالمشبه هو الذي أوتي الآيات و الدلالات و البرهانات –و كان أكثر ما يكون حرصا عليها- فاتبعه الشيطان فانسلخ منها- ففي الكلام تقديم و تأخير يدل عليه المقام، و معنى انسلخ تحول عنها بقهر و انتزاع و إرغام، فهو في حيرة من أمره، أيسلّم نفسه للشيطان، و يخلد إلى الأرض، أم يعود سيرته الأولى حريصا على الحق و النور؟ ».[52]

كلّ تلك الملامح النفسيّة في صورة المشبه واضحة أبلغ الوضوح في صورة المشبه به، « فالكلب يطلب في حرص دائم على الطلب، لفرط الرغبة، و يبذل الجهد الجهيد، ليصل إلى الغرض، فإذا قدّم له شيء نافع من طعام أو ماء أقبل في شغف، فإذا ردّ عنه أدبر في شغف للإقبال، و وقع في الحيرة، و نبح قليلا، و لهث كثيرا، مقبلا عليك، و مدبرا عنك، و كذلك من أدبر عن آيات الله على أنّ صورة المشبه به فيها من التحقير ما هو سمة من سمات الصورة في المشبه».[53]

و تعرّض للتشبيه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ أكثر من مرّة. يقول في موضع: « ...و ليس أن الناس رأوا شيطانا قط على صورة و لكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع الأمم استقباح جميع صور الشياطين، و استسماجه و كراهيته، و قد أجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك، رجع بالإيحاش و التنفير و بالإخافة و التقريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين و الآخرين و عند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم، و هذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن. »[54]

و يضيف في موضع آخر: «فزعم ناس أنّ رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه، و المتكلمون لا يعرفون هذا التفسير، و قالوا ما عني إلا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجنّ و مردهم، فقال أهل الطعن و الخلاف

[52]- بلاغة القرآن بين الفن و التاريخ: 47/46.
[53]- نفسه: 47/46.
[54]- الحيوان: 39/4.

ليس يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه و لا وصفت لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق. و مخرج الكلام يدل على أنّ التخويف بتلك الصورة و التفزيع منها، و على أنّه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره، فكيف يكون الشأن كذلك و الناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صوره لهم واصف صدوق اللّسان بليغ في الوصف، و نحن لم نعاينها، و لا صوّرها لنا صادق، على أنّ أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعاين أهل الكتابين و حملة القرآن من المسلمين، و لم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك و لا يقفون عليه و لا يفزعون منه، فكيف يكون ذلك وعيدا عاما؟.

قلنا: و إن كنّا نحن لم نر شيطانا قطّ و لا صور رؤوسها لنا صادق بيده، ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين أحدهما أن يقولوا لهو أقبح من الشيطان، و الوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانا على جهة التطير له، كما تسمى الفرس الكريمة شوهاء، و المرأة الجميلة صماء و قرباء و خنساء و جرباء، و أشباه ذلك على جهة التطير له، ففي إجماع المسلمين و العرب، و كل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كلّ قبيح. »[55]

لقد أدرك الجاحظ التشبيه المعنوي الموجود في الآية الكريمة واستطاع أن يفصل وجوه التشبيه و يعرف تصرف الأسلوب القرآني في المشبه به و وجه الشبه ينتزعه من غير مدرك بالحس اعتمادا على ثبوته في الإدراك عن طريق العادة و العرف و تناقل الناس له.

و قد أجاز الجاحظ مثل هذا التشبيه و بين وجهته، و ناقش آراء غيره في التشبيه من حيث ضرورة الاعتماد على الحس البصري لتصوير المعنى في الذهن. « و منذ ذلك العهد أو قبله بقليل، اهتمّ الناس بهذين النوعين من التشبيه و تابعوهما في القرآن، و في

---

[55]– الحيوان: 212/6.

البيان عامة، و دارت بحوث التشبيه في البلاغة حول هذه النقطة، و تفرعت من هذين النوعين أنواع أخرى».[56]

إنّ الجاحظ فهم الدور الذي يقوم به التشبيه في الآية و هو القصد إلى إثارة الوجدان عن طريق استدعاء الخيال لصورة قبيحة مفزعة و ما ينتهي إليه من إقرار الخوف و بث الفزع في قرارة النفس.

إنّ اللّغويين فسّروا الآية تفسيرا حسّيا في حين أن الجاحظ رفض ذلك، فهو يتفق و وجهة نظر أهل الظاهر في التفسير و يعارض وجهة أهل النظر من المتكلمين و المعتزلة. و قد فسّر أولئك –نقصد اللّغويين– رؤوس الشياطين « برؤوس نبات ينبت في اليمن، أو شجر كريه المنظر، أو حيات قبيحة الشكل، و كلها مدلولات مادية لكلمة شيطان قد يكون لها أصل من الواقع، و قد تكون من ابتكار هؤلاء و هي على الحالين لا تبلغ في أثرها في النفس مبلغ صورة الشيطان التي تثب إلى الخيال تجمع كل سمات الفزع و القبح و إن تكن غير واضحة وضوح النبات و الشجر و الحيّات،و هذا الغموض يضفي عليها مزيدا من التخويف».[57]

تختلف أسماء الصورة البيانية –التشبيه– عند الجاحظ، فهي مرة باسم المثل و أخرى باسم البدل، و الاستعارة و المجاز، و يدرج هذه الأسماء متتابعة مرة فيقول: « ...و يقولون أيضا على المثل و على الاشتقاق و على التشبيه... ».[58]

تناول الجاحظ أيضا التشبيه في حديث الرسول(ص) حيث ذكر في **باب صفة بلاغة رسول الله(ص)** حديثا هو: « النّاس كلّهم سواءٌ كأسنان المشط»[59] و قارنه بقول الشاعر:

---

[56]– أثر القرآن في النقد العربي: 90.
[57]– نفسه: 91.
[58]– الحيوان: 23/5.
[59]– المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي عن الكتب الستة و عن مسند التارمي و موطأ مالك و مسند أحمد بن حنبل، ابتدأ ترتيبه و تنظيمه و نشره أ.ي. ونسنك وي.پ. منسنج.أتبع نشره ي.بروخمان. مطبعة بريل في مدينة ليدن– ط1– 1967: 229/6.

سَـــوَاءٌ كَأَسْنَانِ الحِمَارِ فَلاَ تَرَى *** لِذِي شَيْبَةَ مِنْهُمْ عَلَى نَاشِيءِ فَضْلاَ[60]

و قول شاعر آخر:

شَبَـــابُهُـــــمُ وَ شِيبُهُمْ سَـــوَاءٌ *** فَهُـــــمْ فِي اللَّوْنِ أَسْنَـــانُ الحِمَارِ[61]

فقال: « و إذا حصّلتَ تشبيه الشاعر و حقيقته، و تشبيه النبي–صلى الله عليه و سلم– و حقيقته علِمتَ فضل ما بين الكلامين...فتفهّم –رحمك الله– قلّة حروفه و كثرة معانيه».[62]

و أفاض الجاحظ في ذكر التشبيهات الواردة في أشعار العرب من ذلك ما ذكره في **باب تشبيه الغيوم بالنعام**، قال: «و توصف الغيوم المتراكمة بأن عليها نعاما، قال الشاعر:

كَـــأَنَّ الرَّبَـــابَ دُوَيْنَ السَّحَـــابِ *** نَعَـــامٌ تَعَلَّـــــــقَ بِالأَرْجُـــــلِ*

و قال آخر:

خَلِيلِـــيَّ لاَ تَسْتَسْلِمَا وَ ادْعُوا الَّذِي *** لَـــهُ كُلُّ أَمْرٍ أَنْ يَصُوبَ رَبِيـــــعُ

حَيًّـــــا لِلْبِلاَدِ أَبْعَدَ المَحْلُ أَهْلَهَـــــا*** وَ فِي العَظْمِ شَيْءٌ فِي شَظَاهُ صُدُوعُ*

بِمُنْتَضِـــكِ عَرَ النَّشَـــــاصَ كَأَنَّهَا *** جِبَالٌ عَلَيْهِنَّ النُّسُـــورُ وُقُـــوعُ**[63]

---

[60]– البيان و التبيين– لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ– تحقيق .درويش جويدي– المكتبة العصرية صيدا– بيروت– 1422هـ/2001م– ط1: 245/2.

[61]– نفسه: 246/2.

[62]– نفسه: 246/2.

* – الرباب: سحاب أبيض. ينظر: لسان العرب: 402/1.

* – الحيا: الخصب. و المحل:الجذب و انقطاع المطر، و الشظى: عظيم لاصق بالركبة.ينظر: لسان العرب: 213/14– 617/11 – 514/10.

** – بمنتضك: و أصله البعير يحبو حبوا و لا يقدر على السير، النشاص، بالفتح: السحاب المرتفع بعض فوق بعض. ينظر: لسان العرب: 499/10– 96/7.

و **باب تشبيه مشي المرأة بمشي القطاة** قال فيه: « و يشبّه مشي المرأة إذا كانت سمينة غير خرّاجة طوّافة بمشي القطاة* في القرمطة** و الدّلّ*** ، و قال ابن ميّادة:

إِذَا الطِّوَالَ سَدَوْنَ الْمَشْيَ فِي خَطَلٍ *** قَامَتْ تَرِيكَ قَوَامًـــا غَيْرَ ذِي أَوَدٍ*4

تَمْشِـــي كَكُدْرِيَّةٍ فِي الجَوِّ فـَـارِدَةً *** تَهْدِي سُرُوبَ قَطًا يَشْرَبْنَ بِالثَّمَدِ*5

و قال جران العود:

فَلَمَّا رَأَيْنَ الصُّبْحَ يَـــا دَرْنَ ضَوْءَهُ *** رَسِيمَ قُطَا البَطْحَاءِ، أَوْهُنَّ أَقْطَفُ*6

و قال الكميت:

يَمْشِينَ مَشْيَ قُطَـــا البُطَاحِ تَأَوُّدًا *** قَبَّ البُطُونِ رَوَاجحَ الأَكْفَالِ*7» [64]

و في **باب شعر في تشبيه الفرس الظليم**، قال: « و ممّا يشبّه به الفرس ممّا في الظليم، قول امرئ القيس بن حجر:

وَ خَـــدٌّ أَسِيلٌ كَالمِسَـــنِّ وَ بِرْكَةٌ *** كَجُؤْجُـــؤٍ هَيْقٍ دَفُّهُ قَدْ تَمَـــوَّرًا*

[63]– الحيوان: 350/4.

* – القطاة: طائر معروف، سمي بذلك لثقل مشيه. ينظر: لسان العرب:395/7.

** – القرمطة: تقارب الخطو. ينظر: لسان العرب:377/7.

*** – الدل، بالفتح: السكينة و الوقار. ينظر: لسان العرب:248/11.

*4 – السدو: التذرع في المشي و اتساع الخطو– الأود: العوج. . ينظر: لسان العرب:211/14– 75/3.

*5 – الكدرى بالضم: ضرب من القطا قصار الأذناب– فاردة: منقطعة عن أخواتها، و ذلك لسرعتها، الثمد:الماء القليل. ينظر: لسان العرب: 134/5 – 331/3 – 105/3.

*6 –الرسيم: ضرب من السير سريع مؤثر في الأرض. أقطف: و هو تقارب الخطو. ينظر: لسان العرب:246/12– 286/9.

*7 –قب جميع قباء، و القبب: دقة الخصر و ضمور البطن. ينظر: لسان العرب:658/1.

[64]– الحيوان: 576/5.

و قال عقبة بن سابق:

وَ لَــهُ بِرْكَةٌ كَجُؤْجُــؤٍ هَيــْقٍ *** وَ لَبَــانٌ مُخْــرَجٌ بِالخِضَـــــابِ**

و قال أبو داود الإيادي:

يَمْشِـــي كَمَشْـــيِ نَعــــَامَتَيْنِ*** يُتَابِعَـــــانِ أَشَـــقَّ شَــاخِصْ***

و قال آخر:

كَــأَنَّ حَمَاتَهُ كُرْدُوسُ فَحْــلٍ *** مُقَلَّصَـــةِ عَلَــــى سَاقَيْ ظَلِيــمِ*4

و قال أبو داود الإيادي:

كَــالسَّيدِ مَــا اسْتَقْبَلَتــْهُ وَ إِذَا *** وَلَّــى تَقُولُ مُلَمْلَمٌ ضَــــــرْبُ*5

لأْمٌ إِذَا اسْتَقْبَلْتَــهُ وَ مَشَــــى *** مُتَتَابِعًــــا مَــــا خَــانَهُ عَقْبُ*6

يَمْشِـــي كَمَشْيِ نَعَــامَةٍ تَبِعَتْ *** أُخْرَى إِذَا مَــا رَاعَهَــا خَطْبُ»65

و في **باب شعر في التشبيه** ذكر: « و أنشدنا للأحمير:

* – البركة بالكسر: الصدر، و الجؤجؤ: الصدر أيضا، و الهيق: الذكر من النعام، و الدف بالفتح: صفحة الجنب،تمورّ: سقط منه النسيل أو الريش. ينظر: لسان العرب:397/10-42/1-370/10-104/9-186/5.

** –اللبان بالفتح: وسط الصدر، مدرج بالخضاب: ملطخ بالدم. ينظر: لسان العرب: 373/13-227/2.

***– أشق: يعني ظليما واسع ما بين الرجلين، و الشاخص: المرتفع. ينظر: لسان العرب: 184/10-45/7.

* 4–الحماة: عضلة الساق، و الكردوس بالضم: واحد الكراديس، و هو رؤوس العظام. ينظر: لسان العرب: 198/14-195/6.

5 – الململم: المجتمع المدوّر. الضرب: الخفيف اللحم. ينظر: لسان العرب: 550/12-549/1.

* 6–اللأم: الشديد. ينظر: لسان العرب:490/12.

65– الحيوان: 334/4.

بِأَقَبَّ مُنْطَلَقِ اللِّبَـــــانِ كَـــأَنَّهُ *** سِيـــدَ تَنَصَّلَ مِنْ جُحُـــورِ سَعَالَى *

و قال آخر:

أُرَاقِبُ لَمْحًا مِنْ سَهِيلٍ كَـــأَنَّهُ *** إِذَا مَا بَدَا مِنْ دُجْيَـــةِ اللَّيْلِ يَطْرُفُ **

و قالوا قال خلف الأحمر: لم أر أجمع من بيت لامرئ القيس، و هو قوله:

أَفَادَ وَ جـــَادَ وَ سَـــادَ وَ زَادَ *** وَ قَـــادَ وَ ذَادَ وَ عَـــادَ وَ أَفْضَـــلَ

و لا أجمع من قوله:

لَهُ أَيْطَلاَ ظَبْـــيٍ وَ سَاقَا نَعَامَةٍ *** وَ إِرْخَاءُ سِرْحَـــانِ وَ تَقْرِيبُ تَتْفُلِ *** »[66]

لقد شبه امرؤ القيس في البيت الأخير أربعة أشياء بأربعة أشياء حيث شبّه خاصرتي الفرس بخاصرتي الظبي، و شبّه ساقيه بساقي النعامة، و شبّه إرخاءه، أي مدّ عنقه في استرسال عند السير بإرخاء السرحان أي الذئب، و ليس دابة بأحسن إرخاء منه، و شبّه تقريبه، أي جمع يديه و وثبه عند الجري بتقريب التتفل، أي ولد الثعلب و المعنى يوحي بأنه أراد الثعلب بعينه مشبها به.

و باب شعر في تشبيه الفرس بضروب الحيوان ليس من بينها الكلب.

« قال الأعشى[67]:

أَمَّا إِذَا اسْتَقْبَلَتـــْهُ فَكَأَنَّـــــهُ *** جَذْعٌ سَمَـــا فَوْقَ النَّخِيـــلِ مُشَذَّبُ *

*- تنصّل: خرج منها، السعلاة: الغول. سيد: الذئب. ينظر: لسان العرب: 664/11- 336/11- 231/3.

** – سهيل: نجم. ينظر: لسان العرب: 347/11.

*** – أيطلا: خاصرة. إرخاء: أن تخلي الفرس و شهوته في العدو. سرحان: من أسماء الذئب. تقريب تتفل: الثعلب و قيل جروه. ينظر: لسان العرب: 18/11- 316/14 – 481/2 – 77/11.

66– الحيوان- 52/3-53.

67– ديوان الأعشى- دار صادر بيروت- ط1- 1414هـ/1994م: 11.

إِذَا تَصَفَّحَهُ الفَوَارِسُ مُعْرِضًا *** فَتَقُولُ سِرْحَــانُ الغَضَا المُتَصَوِّبُ ** ».

بالإضافة إلى باب آخر سمي فيه التشبيه باسم البدل و أعطى به تعريفا هو **باب التشبيه بالكباش و التفاؤل بها:** « و إذا وصفوا أعذاق النخل العظام قالوا: كأنّها كباش، قال الشاعر:

كَـــأَنَّ كِبَاشَ السَّاجِيَةِ عَلَّقَـــتْ *** دُوَيْنَ الخَوَافِي أَوْ غَرَايِـــرَ تَـــاجِرِ

لكان ذلك مما يجوز على التشبيه و البدل، و إن قام الشيء مقام الشيء أو مقام صاحبه، فمن عادة العرب أن تشبّه به في حالات كثيرة». [68]

كما تعرّض لتشبيهات وردت في كلام العرب منها:

« قال ابن عبّاس –و ذكر عمر بن الخطاب فقال-:"كان كالطّائر الحذر"، فشبّه عزم عمر و تخوّفه من الخطأ، و حذره من الخدع بالطّائر». [69]

و أيضا شبّه بعض الحيوان البرّي بنظيره البحري فقال: «و يزعمون أنّ ما كان في البرّ من الضبّ و الورل و الحرباء، و الحلكّاء، و شحمة الأرض، و الوزغ و العظاء مثل الذي في البحر من السلحفاة و الرقّ، و التمساح، و الضفدع، و أن تلك الأجناس البرّية و إن اختلفت في أمورها فإنّها قد تتشابه في أمور، و أن هذه الأجناس البحرية من تلك، ككلب الماء من كلب الأرض». [70]

و علّق على زعم الناس أن السمك يلد بقوله: « و قد زعم ناس من أهل العلم أن السمك كله يلد، و أنّهم إنّما سمّوا ذلك [الحبِّ] بيضا على التشبيه و التمثيل». [71]

---

*- مشدّب: مقشّر. ينظر: لسان العرب: 486/1.
** – تصفح: نظر إليه. الغضا: نبات الرمل. المتصوب: الانحدار. ينظر: لسان العرب: 514/2-128/15-534/1.
[68]– الحيوان: 473/5.
[69]– نفسه: 58/7.
[70]– نفسه: 144/4.
[71]– نفسه: 127/7.

و سمّى الجاحظ بابا في كتابه "البيان و التبيين": **باب من الشعر فيه تشبيه الشيء بشيء** استهله بأبيات فيها تشبيه البرق بنبض العرق و احتساء الطير:

« قال الشاعر:

بَدَ البَرْقُ مِنْ نَحْوِ الحِجَـــازِ فَشَاقَنِي *** وَ كُلُّ حِجَازِيٍّ لَهُ البَرْقُ شَـــائِقُ*

سَرَى مِثْلَ نَبْضِ العِرْقِ وَ اللَّيْلُ دُونَهُ *** وَ أَعْلاَمُ أُبْلَى كُلُّهَا وَ الأَسَـــالِقُ**

و قال آخر:

أَرِقْـــتُ لِبَـــرْقٍ آخِرَ اللَّيْلِ يَلْمَـــعُ *** سَـــرَى دَائِبًا فِيهَا يَهُبُّ وَ يَهْجَعُ***

سَرَى كَاحْتِسَاءِ الطَّيْرِ وَ اللَّيْلُ ضَارِبٌ ***بِأَزْوَاقِهِ وَ الصُّبْحُ قَدْ كَادَ يَسْطَعُ*4».[72]

و انتقل الجاحظ بعد ذلك مباشرة إلى سرد أخبار تدور كلّها حول موضوع واحد هو الأدب، و هذا يدلّ على أنّ « عملية التشبيه عند الجاحظ تجري على غرار عملية الأدب. فكما أن المؤدب يسعى إلى سبك أخلاق مؤدبه و طبائعه بصبّها في مثال يتصوره مسبّقا و يسهر على إحلاله فيه و إدماجه به، فكذلك المتكلم في التشبيه يحاول إلحاق المشبه بالمشبه به بإعطائه صفاته و جعله على صورته و مثاله. و عملية التأديب تعدّ تامة عندما ينصهر الشخص في النموذج و يتّحد به اتحادا كاملا، كذلك يعد التشبيه

* –شاقني: من الشوق أي هاجني. ينظر: لسان العرب: 192/10.

** – سرى: مشى ليلا. نبض: حركة. الأسالق: الماء بين الصمدين من الأرض. ينظر: لسان العرب: 14/381–235/7–161/10.

*** –دائبا: ملازما. ينظر: لسان العرب: 368/1.

*4 – احتساء الطير: شربه الماء. أزواقه: حسنه. ينظر لسان العرب: 176/14–150/10.

72– البيان و التبيين: 391/2.

تاما إذا ما اتحد المشبه بالمشبه به اتحادا يجعل الثاني على الأول و عنوانا يؤدي بسرعة إليه». [73]

و الملفت للنظر أن الجاحظ أنهى المرحلة الأولى من الباب برواية قصّة هامّة نسوقها بنصها، لأنها تعطينا فكرة أولى عن نظريته في التشبيه: « قال أبو الحسن: بينما هشام يسير، و معه أعرابيّ إذ انتهى إلى ميل عليه كتاب فقال للأعرابي:"أنظر أيّ ميل هذا" فنظر ثم رجع إليه فقال:"عليه محجن و حلقة و ثلاثة كأطباء الكلبة و رأس كأنّه رأس قطاة". فعرفه هشام بصورة الهجاء و لم يعرفه الأعرابي و كان عليه "خمسة" و هي من نوادر الأعراب». [74]

فما هو السبب الذي جعله يسوق هذا الخبر في هذا الموضع بالذات؟

ربّما كان ذلك للاستدلال على وظيفة التشبيه و طاقته التصويرية.

و لقد ختم الجاحظ هذا الباب بأمثلة خصصها للتشبيه كقوله: « و قال العتابيّ: "الشيب تاريخ الكتاب" »[75] أي كتاريخ الكتاب، و « قال النميري:"الشيب عنوان الكبر"»[76] أي كعنوان للكبر فالجاحظ «يرى أن العلاقة التي تجمع بين الشيب و عمر الإنسان هي ذات العلاقة التي تجمع بين الكتاب و تاريخه أي أنها علاقة عضوية يلخص فيها الأول مراحل الحياة و الثاني مراحل التأليف».[77]

و تحدّث عن التشبيه في باب آخر يضاف إلى باب الخطب و إلى القول في تلخيص المعاني و الخروج من الأمر المشبه بغيره، فذكر فيه بيتا من الشعر عدّه البلاغيون القدماء كشاهد في تشبيه التمثيل و هو :

---

[73]- النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين- لمحمد الصغير بنّاني- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ط1- 1994: 302.

[74]- البيان و التبيين: 393.

[75]- نفسه: 393/3.

[76]- نفسه: 393.

[77]- النظريات اللسانية: 303.

قَتَلْنَا بِقَتْلاَنَا مِنَ القَـــوْمِ مِثْلَهُـــمْ *** كِرَامًـــا وَ لَمْ نَأْخُذْ بِهِـــمْ حَشَفَ التَّمْرِ[78]

و عرّف العقل بعد ذكر البيت مباشرة فقال « هو الإصابة بالظنون و معرفة ما لم يكن بما قد كان»[79]، و تعريفه للعقل بهذا الشكل « يلقي ضوءا جديدا على مفهوم التشبيه عند الجاحظ إذ المقصود منه استعمال الخيال كأداة للتفكير و الاكتشاف. و قوله العقل معرفة ما لم يكن بما قد كان هو تحليل لعملية التشبيه و وصف لساني لطريقة إجرائها».[80]

و يعد الجاحظ أوّل من أرسى دعائم فكرة العلاقة بين المشبه و المشبه به حيث أنه كان يرى أن التشبيه « لا يلغي الحدود بين الأشياء أو الكائنات بل يظل محافظا على تمايزها و انفصالها»[81]. يقول: «و قد يشبه الشعراء و البلغاء الإنسان بالقمر و الشمس، و الغيث و البحر، و بالأسد و السيف، و بالحية و النجم، و لا يخرجونه بهذه المعاني إلى حدّ الإنسان. و إذا ذموا قالوا: هو الكلب و الخنزير، و هو القرد و الحمار، و هو الثور، و هو التيس،و هو الذيب، و هو العقرب، و هو الجعل، و هو القرنبي، ثم لا يدخلون هذه الأشياء في حدود النّاس، و لا أسمائهم و لا يخرجون بذلك الإنسان إلى هذه الحدود و هذه الأسماء».[82]

أي أنّ ما ينطبق على الإنسان ينطبق بالضرورة على باقي الكائنات و الأشياء و أن التشبيه يظل محافظا بالتمايز على الاستقلال. « و لعلّ في جمع الجاحظ بين العلماء و الشعراء في هذا المقام، فضلا عن هذه النظرة الصارمة للتشبيه، ما يشي بفهمه المنطقي

[78]– البيان و التبيين: 625/3.
[79]– البيان و التبيين: 626/3.
[80]– النظريات اللسانية و البلاغية: 305.
[81]– الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي– لجابر أحمد عصفور– دار الثقافة للطباعة و النشر– القاهرة– ط1– د.ت: 211.
[82]– الحيوان: 211/1.

لطبيعة العلاقة التي يقوم عليها التشبيه، و ما يشي أيضا بالتأثير المبكر للمتكلمين في تحديد مفهوم التشبيه، و الانحراف به عن طبيعته الأصلية».[83]

خامسا: التشبيه عند ابن ق

قام ابن قتيبة في منتصف القرن الثالث للهجرة على راس اهل السنة المناضلين عن مذهبهم ضدّ تيارات الكلام و الاعتزال، فقد كان إمامًا من أئمّتهم البارزين شبّهت مكانه بينهم بمكانة الجاحظ بين المعتزلة.

و كانت ثقافته عربية تقوم على القرآن و الحديث و اللّغة و النحو و الأدب شعره و نثره بالإضافة إلى إطلاعه على ثقافات أخرى يونانية و فارسية و هندية.

كل هذه الثقافات جعلته كثير التأليف متنوع المشاغل ذا نظر موسوعي.

و رغم كثرة مؤلفاته إلاّ أنّه لم يترك مؤلّفا صريح الانتساب إلى المبحث البلاغي، لكن هذا لا يعني أنّه أغفله بل إنّ آثاره لا تخلو من الإشارات البلاغية و الأحكام الفنّية التي تمس صنوف القول و أفانين التعبير من بينها التشبيه.

فهو –أي التشبيه- و إن كان ضئيل التواتر في مصنفه "تأويل مشكل القرآن" بسبب خوفه على عقيدته أن يطعن فيها، نجده في كتب أخرى يولي له أهمّية كبيرة إذ جعله من مزايا الشعر الفاضل الذي يختار و يحفظ: و ليس كلّ الشعر يختار و يحفظ على جودة اللّفظ و المعنى و لكنّه قد يختار و يحفظ على أسباب منها الإصابة في التشبيه كقول القائل في وصف القمر[84]:

---

[83]- الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي: 211.

[84]- الشعر و الشعراء- لأبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة- قدم له و راجعه حسن تميم و محمد عبد المنعم العريان- دار إحياء العلوم- بيروت- ط5- 1414هـ/1994م: 37.

بَدَأَنْ بِنَـــا وَ ابْنُ اللَّيَـــالِـــي كَأَنَّهُ *** حُسَامٌ جَعَلَتْ عَنْهُ القُيُونُ صَقِيلُ*

فَمَازِلْتُ أُفْنِـــــي كُلَّ يَوْمٍ شَبَابَهُ *** إِلَى أَنْ أَتَتْكَ العِيسُ وَ هُوَ ضَئِيل**.

و يؤكّد لنا أنّ النقّاد بنوا أحكامهم تجاه الشعر على أساس التشبيه و فاضلوا بين الشعراء و سبقهم إلى ذلك، فذو الرمّة عدّ من المتقدمين لأنّه « أحسن الناس تشبيها».[85]

ففي كتابه "الشعر و الشعراء" نجد الصورة الأكثر تواترا هي التشبيه « و ليس في الأمر غرابة فهو أكثر الأساليب انتشارا في الشعر العربي و أكثر الأنواع البلاغية أهمية بالنسبة إلى الناقد القديم».[86]

و من التشبيهات التي تناولها و علّق عليها بيت امرئ القيس المشهور[87]:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَ يَابِسًا *** لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ وَ الحَشَفُ البَالِي

عدّ ابن قتيبة هذا البيت من التشبيهات الحسنة حيث قال: « شبّه شيئين بشيئين في بيت واحد، و أحسن التشبيه».[88]

و يوظف ابن قتيبة التشبيه لتسجيل جودة الشعر، معتمدًا في ذلك على إبراز مفهوم الابتداع أي البديع الذي كان متعارفا عليه آنئذ « و هو السبق إلى الوجه فيكون المصطلح جامعا لمعنيين، السبق من جهة، و الوجه البلاغي مطلقا من جهة أخرى».[89]

* – صقيل: السيف. ينظر: لسان العرب: 380/11.
** –العيس: إبل تضرب إلى الصفرة. ينظر: لسان العرب: 152/6.
[85]– الشعر و الشعراء: 362.
[86]– التفكير البلاغي عند العرب: 319.
[87]– ديوان امرئ القيس: 145.
[88]– الشعر و الشعراء: 70.
[89]– التفكير البلاغي عند العرب: 326.

و لقد أورد نصوصا تشهد لذلك منها قوله: « و قد سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها و استحسنها العرب و اتبعته عليها الشعراء من استيقافه صحبه في الديار و رقّة النسيب و قرب المأخذ».[90]

و قال أبو عبيدة فيه: « هو أوّل من قيّد الأوابد، يعني في قوله في وصف الفرس قيد الأوابد، فتبعه الناس على ذلك. و قال غيره هو أوّل من شبّه الثّغر في لونه بشوك السّيال فقال[*]:

مَنَابِتُهُ مِثْلُ السُّـــــدُوسِ وَ لَوْنُهُ *** كَشَوْكِ السَّيَالِ وَ هُوَ عَذْبٌ يَفِيضُ[**]

فاتبعه الناس. و أول مـ

بمقلاءِ الوليد... و شبّه الطلل بوحي الزّبور في العسيب و الفرس بتيس الحلّب».[91]

و لا يفرّق ابن قتيبة بين التشبيه و التمثيل و يعتبرهما شيئا واحدًا، و ذلك عندما يحلل قول أبي نواس[92] واصفا الديار:

كَأَنَّهَـــا إِذَا خَـــرِسَتْ جَـــارِمُ *** بَيْـــنَ ذَوِي تَفْنِيـــــدِهِ مُطَـــــرِقُ[*]

« شبه ما لا ينطق أبدًا في السكوت بما قد ينطق في حال، و إنّما كان يجب أن يشبّه الجارم إذا عذلوه فسكت و أطرق و انقطعت حجّته بالدار، و إنّما هذا مثل قائل قال مات القوم حتى كأنّهم نيام، و الصّواب أن يقول نام القوم حتى كأنّهم موتى، و نحوه قول الأحمر:

90– الشعر و الشعراء: 55.

* – و البيت غير موجود في الديوان.

** – السدوس: اسم جبل. السيال: شوك أبيض. ينظر: لسان العرب: 105/6–252/11.

91– الشعر و الشعراء : 70.

92– البيت غير موجود في الديوان.

* – جارم: الجاني. تفنيده: عجزه و ضعفه. مطرق: كثير السكون. ينظر لسان العرب: 91/12–338/3–219/10.

كَأَنَّ نِيرَانَهُمْ مِـــنْ فَوْقِ حِصْنِهِمْ *** مُعَصْفَرَاتٌ عَلَـــى أَرْسَـــانِ قَصَّارِ *

و إنما ينبغي أن يقول كأنّ المعصفرات نيران».[93]

و يشير ابن قتيبة إلى ما أسماه البلاغيون بالتشبيهات العقم، و العقميّ من الكلام الغامض، و هي الأبيات التي لم يسبق أصحابها إليها و لا تعدى أحد بعدهم عليها، و اشتقاقها فيما ذكر من الريح العقيم و هي التي لا تلقح شجرة و لا تنتج ثمرة:

و ممّا سبق إليه عنترة* و لم ينازع فيه قوله:

وَ خَلاَ الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ *** غَـــرَادًا كَفِعْلِ الشَّـــــارِبِ الْمُتَرَنِّمِ **

هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعَـــــهُ بِذِرَاعِهِ *** فِعْلُ الْمُكِبِّ عَلَـــــى الزِّنَادِ الأَجْذَمِ ***

و يستفيض ابن قتيبة في شرح الصورة البيانية التي أشكل فهمها على بعض النقاد عندما قرؤوا بيت أبي نواس[94] الذي يقول فيه:

لاَ كَرْمُهَـــا مِمَّـــا يُـــذَالُ وَ لاَ*** فُتِلَتْ مَرَائِرُهَـــــا عَلَـــى عَجَـــمِ *

يقول في ذلك: « فإنّه أشكل معناه، و الذي عندي فيه أنّه وصف الخمر بالصّلابة و الشدّة فشبّهها بحبل فتلت قواه و هي مرائره بعد أن نقّيت من كسارة العيدان و رضاضها و إذا نقّيت من ذلك جاد الحبل و صلب و اشتدّ فتله و أمن انتشاره، و إذا فتل على تلك الكسارة و ذلك الرضاض لم يشتدّ الفتل و أسرع إليه الانتشار، و أصل

* – أرسان: الحبال. قصار: المحوّر من الثياب. ينظر: لسان العرب: 13/180-5/104.

[93]– الشعر و الشعراء: 547.

* – البيتين غير موجودين في الديوان.

** – غرادا: ج الكمأة. ينظر: لسان العرب: 3/325.

*** – الأجذم: المقطوع اليد. ينظر: لسان العرب: 12/87.

[94]– ديوان أبي نواس– دار صادر– بيروت– ط1– د.ت: 539.

* – مرائر: الحبال المفتولة على أكثر من طاق. ينظر: لسان العرب: 5/169.

العجم النوى، شبّه ما يبقى من عيدان الكتّان في مرائر الحبل به، و هذا مثل يضرب كل شيء اشتدّ و قوي فيقال إنّه لذو مرّة أي ذو فتلٍ».[95]

و لا يجاري ابن قتيبة غيره في الأحكام، بل يتريث ليحكم ذوقه فيما يعرض له من شعر، ثم يكشف بعد ذلك عن مواطن الحسن و الجمال التي خفيت عن الآخرين و من ذلك ما جاء في قول النابغة الجعدي:

كَـــأَنَّ تَوَالِيَهَــــا بِالضُحَـــى *** نَوَاعِـــمُ جَعْـــلٍ مِـــنَ الأَتْــــأَبِ*

فقد وضّح ابن قتيبة الصورة البيانية قائلا: « فقد أخِذ عليه و قالوا الجعْلُ صغار النخل فكيف جعله الأتأب و لا أراه إلاّ صحيحا على التشبيه كأنّه أراد نواعم أتأب كالجعل و قد تسمّي العرب الشيء باسم الشيء إذا كان له مشبها و لعلّ الأتأب أن تكون تسمّى إفناؤه جعلا كما تسمّى إفناءِ النخل و قصاره جعلا».[96]

و يؤكّد ذلك مرّة أخرى عندما يعرض لقول « المسيب بن علس

وَ كَـــأَنَّ غَارِبَهَـــا رَبَاوَةُ مَخْرَمٍ *** وَ تَمُدُّ ثَنْــــيَ جَدِيلِهَـــا بِشِـــرَاعِ*

أراد تمدّ جديلها بعنق طويلة، و الجديل الزمام، و أراد أن يشبّه العنق بالدقل فشبهها بالشراع. قال ابن الأعرابي لم يعرف الشراع من الدقل و ليس هذا عندي غلطا، و الشراع يكون على الدقل فسمّي باسمه و العرب تسمي الشيء باسم غيره إذا كان معه و بسببه».[97]

---

[95]- الشعر و الشعراء: 550.

* – جعل: الفسيلة أو النخلة الصغيرة. الأثأب ثوب تضعه المرأة. ينظر: لسان العرب: 11/112-1/205.

[96]- الشعر و الشعراء: 254.

* – غاربها: أعلا مقدم السنام. رباوة كل ما ارتفع من الأرض. مخرم: أنف الجبل. ينظر: لسان العرب: 1/644-14/306-12/170.

[97]- الشعر و الشعراء: 102.

و من التشبيهات التي ذكرها ابن قتيبة تشبيه شيء بثلاثة أشياء، من ذلك شبّه زهير امرأة في الشعر بثلاثة أوصاف في بيت واحد فقال: [98]

تَنَــازَعَتِ المَهَا شَبَهًا وَ دَرُّ النُحُورِ *** وَ شَـاكَهَتْ فِيـــهِ الظِّبَـاءُ*

ثم قال ففسّر[99]:

فَأَمَّا مَـا فوَيْـقَ العِقْــدِ مِنْهَـا *** فَمِــنْ أَدْمَــاءَ مَرْتَعُهَــا الخَلاَءُ

وَ أَمَّــا المُقْلَتَــانِ فَمِــنْ مَهَــاةٍ *** وَ لِلدُّرِّ المَــلاَحــَةُ وَ الصَّفَــاءُ.

و ربّما اكتفى قتيبة أحيانًا بالإشارة السريعة إلى التشبيه في كتابه "الشعر و الشعراء" أمّا إذا تصفحنا كتبه الأخرى فنجد الرجل يقف عند بعض التشبيهات فيحللها تحليلاً بلاغيًّا يستوفي الصورة حقّها، و يبرز خصائصها الفنية، فالمشبه و المشبه به لابد من تقاربهما في وجه الشبه، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾[100] يقول: «و وقع تشبيه الشرر بالقصر في مقاديره، ثم شبّه في لونه بالجمالة الصفر، و هي السود، و العرب تسمى السود من الإبل صفراء... و الشيء إذا تطاير فسقط و فيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود لما يشوبها من الصفرة»[101].

و تفطّن ابن قتيبة إلى ما عرف بالتشبيه المشروط عندما وقف على تأويل قوله تعالى:﴿وَ تَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[102] فقال: « يريد أنّها تجمع و تسير، فهي لكثرتها كأنّها جامدة واقفة في رأي العين، و هي تسير سير السحاب

---

[98]– ديوان زهير بن أبي سلمى– تحقيق كرم البستاني– دار بيروت للطباعة و النشر– ط1– 1982: 08.

* – المها: بقرة الوحش. درّ: كثير اللبن. شاكهت: شابهت. ينظر: لسان العرب: 15/299–4/279–13/508.

[99]– نفسه: 9/8.

[100]– سورة المرسلات: 32–33.

[101]– تأويل مشكل القرآن– لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة– شركة السيد أحمد صقر– المكتبة العلمية– ط1– د.ت: 320.

[102]– سورة النمل: 88.

و كل جيش غصّ الفضاء به لكثرته، و بعد ما بين أطرافه فقصر عنه البصر، فكأنّه في حسبان الناظر واقف و هو يسير».[103]

و يعرفه القزويني قائلا: «و يسمى هذا التشبيه المشروط؛ و باعتبار أداته إمّا مؤكّدة، و هو ما حذفت أداته مثل قوله تعالى: ﴿وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾».[104]

و مما ذكره ابن قتيبة في تفسير قوله تعالى:﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾[105] قال: « العرب تشبّه النساء ببيض النعام، قال امرؤ القيس[*]:

كَبِكْرِ المَقَانَـــاتِ البَيَـــاضِ بِصُفْرَةٍ *** غَذَاهَا نَمِيرُ المَـــاءِ غَيْرَ مُحَلَّـــلِ[**]

و "المكنون" المصون، يقال: كننت الشيء، إذا صنته، و أكننته، أخفيته».[106]

و هذا ما عرّفه أبو هلال العسكري بأنّه تشبيه شيء بشيء، فقال: «و يصحّ تشبيه الشيء بالشيء جملة، و إن شابهه من وجه واحد».[107]

و من ذلك تشبيه الشيء بالشيئين، و منه قول أوس بن حجر[108] في وصف السيف:

كَـــأَنَّ مَدَبَّ النَّمْلِ يَلْتَمِسُ الرُّبَى *** وَ مَدْرَجِ ذَرٍّ خَـــافَ بَرْدًا فَأَسْهَلاَ[*]

قال ابن قتيبة: «شبّه فرند السيف بمدرج الذرّ و مدبّ النّمل».[109]

---

[103]– تأويل مشكل القرآن: 06.

[104]– التلخيص في علوم القرآن– ضبط و شرح عبد الرحمن البرقوقي– دار الكتاب العربي– لبنان– ط1– 1904م: 286.

[105]– سورة الصافات: 49.

*– البيت غير موجود في الديوان.

**–نمير الماء: الناجع في الريّ. ينظر: لسان العرب: 236/5.

[106]– تفسير غريب القرآن– أبي عبيدة الله بن مسلم بن قتيبة– شرحه ابراهيم محمد رمضان– مكتبة الهلال–بيروت– ط1–1991م: 319.

[107]– الصناعتين الكتابة و الشعر– أبي هلال العسكري– تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل ابراهيم– دار الفكر العربي– ط2– د.ت: 251.

[108]– ديوان أوس بن حجر– تحقيق محمد يوسف نجم– دار صادر– بيروت– ط2– د.ت: 85.

*– مدرج: المواضع التي يمشي فيها. ذرّ: نثرز ينظر: لسان العرب: 226/2– 305/4.

[109]– عيون الأخبار– ابن قتيبة– إعادة طبعة دار الكتاب العربي– دار الكتب المصرية– ط1– 1925م: 187/2.

و يؤكّد ابن قتيبة مقدرته الفنّية على تذوق النصوص عندما يحلل صورة فنّية من مثل قول الشاعر:

كَـــأَنَّ نِيرَانَهُمْ فِـــــي كُلِّ مَنْزِلَةٍ *** مُصَبَّغَـــاتٍ عَلَى أَرْسَـــانِ قَصَّارِ

« النّاس يستحسنون هذا و أنا أرى أن أقول: الأولى أن يشبّه المصبغات بالنيران لا النيران بالمصبغات».[110]

إنّ وجهة نظره في هذا المثال جيّدة، إذ أنّ وجه التشبيه في المشبه به أقوى و أتمّ منه في المشبّه.

و نجد ابن قتيبة يحلل صورة أخرى من القرآن و يدلي فيها برأيه مستعينا بما أثر عن العرب فيقول في الآية الكريمة:﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾[111]أي « غروبها، و يقال زوالها و الأول أحب إليّ، لأنّ العرب تقول: ذلك النّجم إذا غاب، فقال ذو الرمّة[*]:

مَصَـــابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَـــا *** نُجُومٌ وَ لاَ بِالآفِلاَتِ الدَّوَالِـــكِ[**]

و تقول في الشمس: دلكت براح، يريدون غزيت و الناظر قد وضع كفّه على حاجبه ينظر إليها.

قال الشاعر:

وَ الشَّمْـــسُ قَدْ كَـــادَتْ دَنَفًـــا *** أَدْفَعُهَـــا بِالرَّاحِ كَـــيْ تَزَحْلَفَـــا[***]

[110]- نفسه: 191/2.و هذا النوع من التشبيه سماه المتأخرون: التشبيه المقلوب.

[111]- سورة الإسراء: 08.

*- ديوان شعر ذي الرمّة و هو غيلان بن عقبة العدوي- راجعه و قدّم له و أتمّ شروحه و تعليقاته زهير فتح الله- دار صادر -بيروت- ط1- 1995م:365.

**- مصابيح: يعني الإبل، تصبح في الأماكن التي تبرك فيها. أفل النجم: غاب. الدوالك: التي دلكت أي غابت أو دنت للمغيب.

***- دنفا: دنت للمغيب. تزحلفا: تزلّج. ينظر: لسان العرب: 9/107-9/131.

فشبّهها بالمريض في الدّنف، لأنّها قد همّت بالغروب كما قارب الدّنف الموت و إنّما ينظر إليها من تحت الكفّ، ليعلم كم بقي لها إلى أن تغيب و يتوقى الشعاع بكفّه». [112]

كما فسّر قوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [113] بقوله: « أي فما لها من أصل، فشبّه كلمة الشرك بحنظلة قطعت، فلا أصل لها في الأرض و لا فرع لها في السّماء و لا حمل». [114]

و لقد عرض ابن قتيبة إلى تأويل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [115] فقال: « أي ليس كهو شيء، و العرب تقيم المثل مقام النفس، فتقول: مثلي لا يقال له هذا، أي أنا لا يقال لي». [116]

و يوجد فهم سليم آخر للآية هو «﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لكان ذلك نفيا للمثل المكافئ، و هو المثل التّام المماثلة فحسب، إذ أنّ هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه، و إذًا لدبّ إلى النفس دبيب الوساوس و الأوهام؛ أن لعلّ هناك رتبة لا تضارع رتبة الألوهيّة و لكنّها تليها، و أنّ عسى أن تكون هذه المترلة للملائكة و الأنبياء، أو للكواكب و قوى الطبيعة، أو للجنّ و الأوثان و الكهان. فيكون لهم بالإله الحقّ شبه في قدرته أو علمه، و شرك ما في خلقه أو أمره. فكان وضع هذا الحرف –الكاف– في الكلام إقصاء للعالم كلّه عن المماثلة و عمّا يشبه المماثلة و ما يدنو منها، كأنّه قيل: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلا لله، فضلا عن أن يكون مثلا له على الحقيقة». [117]

[112]– تفسير غريب القرآن: 220.
[113]– سورة ابراهيم: 26.
[114]– تفسير غريب القرآن: 199.
[115]– سورة الشورى: 02.
[116]– تفسير غريب القرآن: 378.
[117]– النبأ العظيم "نظرات جديدة في القرآن"– لمحمد عبد الله درّاز– دار القلم– الكويت– ط4– 1977م: 133.

و يتفنن ابن قتيبة في فهم النصوص القرآنية، إذ يقول في تفسير قوله تعالى:﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾[118] « أي جدب يقال:"إنّ الجائع فيه كاد يرى بينه و بين السّماء دخانًا، من شدّة الجوع"، و يقال:"بل قيل للجوع، دخّان ليُبس الأرض في سنة الجدب و انقطاع النبات، و ارتفاع الغبار. فشبّه ما يرتفع منه بالدخان، كما قيل لسنة المجاعة غبراء؛ و قيل جوع أغبرو ربّما وضعت العرب الدّخان موضع الشرّ إذا علا، فيقولون: كان بيننا أمر ارتفع له دخان».[119]

و بناء على دراسة التشبيه عند النحاة الثلاثة: سيبويه و الفراء و أبو عبيدة، نخلص إلى القول بأن:

-دراسة التشبيه في هذه الفترة تعدّ متطورة نسبيا فلقد وقعت الإشارة إلى عناصر التشبيه الأساسية: المشبه و المشبه به و وجه الشبه و إن لم يعلقوا كلّ مفهوم بالمصطلح المناسب له، كما أشاروا إلى أهم طرقه كالتشبيه بالأداة، و بالبدل، و المصدر المنصوب، و فرقوا بين نوعيه: التشبيه البسيط و تشبيه التمثيل، و اهتمّوا في درجة أقلّ بالمعنى الحاصل منه و بالجانب النفسي فيه، إلاّ أنّ ذلك لم يرد في نطاق بحث منظم و درس مستقل يتعمق القضايا و يحللها باحثا عن الأبعاد الفنيّة التي تتضمنها هذه الطريقة في الأداء.

-إنّ المنهج الذي اعتمده هؤلاء النحاة طرح جملة من المسائل جعلتهم بالتفكير فيها يتجاوزون حدود النحو إلى أبحاث رسمت إطارا نظريا صالحا لجملة المشاغل اللّغوية المتأخّرة بما في ذلك البحث البلاغي.

و خلاصة القول في التشبيه في أسلوب القرآن عند الجاحظ ما نجمله في النقاط التالية[120]:

[118]- سورة الدّخان: 44.
[119]- تفسير غريب القرآن- ص346.
[120]- ينظر: بلاغة القرآن بين الفن و التاريخ: 49-50. و أثر القرآن في تطور النقد: 92.

1- أنّ الجاحظ كان ينظر للأسلوب القرآني نظرة عقلية مجردة تتأثر بذوقه الخاص و إحساسه الخاص، فهي نظرة ذهنية فنية في أساسها.

2- لم تكوّن تلك النظرة للأسلوب القرآني قاعدة عامة تندرج تحتها هذه اللّمحات الفنيّة، و تنبض في نطاقها كدليل على صحتها، بمعنى أنّها تفتقد الوحدة العضوية بين أجزائها المتعددة، فهي شذرات منتشرة هنا و هناك من غير ترابط و لا اتساق.

3- نظر للأسلوب القرآني نظرة جدية باعتبار النظم و التركيب فتحت الباب لدراسات على جانب كبير من الأهمية في أسلوب القرآن، و بالرغم من أن هذه النظرة كانت جزئية تبرز في آية دون أخرى، إلاّ أنّها ذات خطر حول ما يتعلق بالإعجاز.

4- لم تكن الدلالات البلاغية في دراساته القرآنية مقصودة لذاها لتكوّن نظرية عامة، و إنما كانت انسيابا تأثّريا يفيض في بعض المواقف دون بعض، و على كل حال فقد كانت نظرة الجاحظ حلقة مبكّرة في مجال هذه الدراسات لها قيمتها الكبيرة.

5- أنّ التشبيه في القرآن —فيما يتصل بالذات الإلهية و أحوال الملائكة، و اليوم الآخر فيه من الجنة و النار و مشاهدهما- صور ذهنية في قوالب و أشكال مادية محسوسة لإبراز المعنى و تثبيته في النفوس.

6- و التشبيه فيما عدا ذلك يجري حسبما يقتضيه التعبير الأدبي —عند البلاغيين و النقاد- و قد بدأ مدلوله هذا يتضح عند الجاحظ.

7- لم يكن لفظ التشبيه قد استقر بعد على الصورة التي عرفت بعد في البلاغة بل تنازع مدلولها ثلاث ألفاظ (البدل، و المثل، و التشبيه).

8- تعمّق الجاحظ في بيان أوجه الشبه و تفصيل أجزائه مع شرح واف —في كثير من الأحيان- ليوضح الغرض القرآني في التعبير.

9- كان الحجاج الديني و محاولة تسفيه آراء أصحاب الظاهر من المفسرين و اللغويين من أهم الدواعي إلى التعمّق في بحث التشبيه عنده، ليفلت من القيود الحسّية و من التجسيم.

أما الملاحظات التي يمكن أن نستشفّها من خلال دراسة الجاحظ للتشبيه في أشعار العرب و كلامهم فهي:

- أنه أول من قدّم لنا تعريف اصطلاحي للتشبيه: « إن قام الشيء مقام الشيء أو مقام صاحبه فمن عادة العرب أن تشبّه به في حالات كثيرة»[121]
- أنه أوّل من أرسى دعائم فكرة العلاقة بين المشبه و المشبه به.
- أنّ التشبيه عنده يفيد العينية لا الغيرية.
- أنّه جمع أمثلة عديدة في التشبيه تحت نفس العنوان و من عصور مختلفة.
- أنّ دراسته كانت عملية أكثر منها نظريّة.

فالجاحظ إذن « و إن لم يضع حدودا واضحة للتشبيه، فقد أفاد إلى حدّ كبير، و ألقى ضوءًا على جملة من قضاياه، ممّا أعان المتأخرين على إتمام الصورة من بعده».[122]

و بعد دراسة الشواهد التي أوردها ابن قتيبة عند دراسته للتشبيه يتبيّن لنا:

- أنّ دراسة ابن قتيبة لفنّ التشبيه في كتابه "الشعر و الشعراء" لم يكن شافية ملمّة بكلّ جوانب الصورة البيانية بل كانت وسيلة للمفاضلة بين الشعراء و تصنيفهم في طبقات.
- أنّ جملة الأبيات التي اختارها ضمن ما أسماه "حسن التشبيه" تدل على دقّته في الاختيار.
- أنّه ذكر آراء الآخرين أثناء التحليل ثمّ عبّر عن رأيه الخاص.

[121]- الحيوان: 373/4.
[122]- البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم- عبد الفتاح لاشين- دار الفكر العربي-ط2- 1460هـ/2000م : 26.

أنّه كان بارعاً في معايشة النصوص و سبر أغوارها، و الكشف عن بديع معانيها، فرغم أنّه لم يقسّم التشبيه إلاّ أنّه عرّف وظيفته في الكلام، و دلّ على فخامة قدرها من تحليلاتها القيّمة.

الفصل الثاني

التشبيه عند المبرّد

الفصل الثاني : التشبيه عند المبرد

تمهيد

أولا : حدّ التشبيه

ثانيا : أقسامه

1-التشبيه المصيب

2-التشبيه المتجاوز المفرط

3-التشبيه المقارب

4-التشبيه البعيد

5-التشبيه المليح

6-التشبيه الجيد

7-التشبيه الحسن

8-التشبيه العجيب

9-التشبيه المحمود

10-التشبيه المختصر

11-تشبيهات غريبة مفهومة

12-التشبيه المطرد

13-تشبيه المحدثين المستطرف

14-تشبيه سخيف

تمهيد :

إنّ أبرز مجهود شخصي بذله المبرّد فيما يتعلق بالبلاغة العربية، ذلك الباب الطريف الذي عقده للتشبيه. فهو في هذا الباب كلّه لم يعتمد على أسلافه من علماء البلاغة و النحو و اللّغة كسيبويه و الفرّاء و أبي عبيدة و ابن قتيبة، و إنّما اعتمد على استقراءاته في الشعر العربي، و جمع الشواهد الشعرية التي تحقق له إفراد باب بأكمله في موضوع واحد.

و التشبيه قبل المبرّد كان موزّعا في كتب السابقين، يصادفنا خلال حديث المؤلف عن موضوع بعينه قد يكون بعيدا كل البعد عن التشبيه، فيستطرد منه إلى مثال في التشبيه، أو تعقيب على بيت من الشعر تضمن تشبيها، أو بعض آيات من القرآن حفلت بالتشبيه و على كل، فلم يكن الحديث عن التشبيه قبل المبرّد هو القصد الأول الذي يرمي إليه المؤلف و إنما نراه داخلا في طيّات غيره.

و لّما جاء المبرّد أفرد له بابا مستقلا أطال فيه الحديث عنه،بداه بقوله: « و هذا باب طريف نصل به هذا الباب، الجامع الذي ذكرناه و هو بعض ما مرّ للعرب من التشبيه المصيب و المحدثين بعدهم ».[1]

و مردّ اهتمام المبرّد بالتشبيه اقتناعه بعد ممارسة لغة العرب و أشعارها، بأنه أكثر أساليب التعبير انتشارا.

و قد عبّر عن هذه القناعة في مواطن عديدة من هذا الباب منها قوله: « و التشبيه جار كثير في كلام العرب، حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لَمْ يُبْعِدْ ».[2]

1– الكامل: 40/2.
2– نفسه: 79/2.

و أيضا قوله: « و التشبيه كثير و هو باب كأنه لا آخر له ».[3]

و يظهر تفرّد المبرّد عن سابقيه بطريقته المتوخاة في دراسة التشبيه إذ بناها على الاستقراء و الاستنتاج الشخصي، لا على الرواية و النقل. فقد عمد إلى الشعر العربي القديم و المحدث، و انتقى ما تضمنته عيونه من تشبيهات مصيبة جيّدة. و بذلك تجمعت لديه مادّة غزيرة اعتمد عليها في تأسيس الباب شواهد و استنتاجات.

و كان المبرّد «يورد ما عرف العرب في كلامهم من ضروب التشبيه المختلفة و ما تعوّدوا أن يشبّهوا به من أشياء تقع تحت حسّهم من واقع حياتهم، و قد ارتسمت في أذهانهم بمعان خاصة. و يبدأ بما جاء في شعر القدماء ثم يتبعه بما جاء و استحسن في شعر المحدثين ».[4]

و رغم أنّ المبرّد يعد أحد علماء اللّغة في عصره إلا أن حبه للقديم و انشغاله بالدراسات اللّغوية لم يؤثر على تعاطفه مع الشعر المحدث و إنصافه له.[5]

و يتضح إنصافه للشعر الحديث من اعتقاده بزيف المقياس القديم، الذي يعوّل في قبول الشعر أو رفضه على الزمن وحده، و يلخص هذا الموقف قوله: « و ليس لقدم العهد يفضل القائل و لا لحدثان عهد يهتضم المصيب و لكن يعطي كل ما يستحق ».[6]

و من استقرائه للنماذج الشعرية الكبيرة استخلص معلومات نظرية تدور حول محورين أساسيين: حد التشبيه و أقسامه.

---

[3]- الكامل: 115/2.

[4]- تاريخ النقد و البلاغة: 377.

[5]- ينظر: الخصومة بين القدماء و المحدثين في النقد العربي القديم تاريخها و قضاياها- لعثمان صوافي- دار المعرفة الجامعية- ط3- 1995م: 39.

[6]- الكامل: 18/1. و قد أشار إلى هذه الفكرة بن قتيبة. ينظر: الشعر و الشعراء: 23-24.

أولا: حدّ التشبيه:

لم يعن القدماء بحدّ التشبيه كما فعل المتأخّرون، و إنّما عرفوه صورة توضح الفكرة، و تحسّن المعنى، عرفه امرئ القيس، فقال في صفة الفرس[7]:

مِكَـــــرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِـــلٍ مُدْبِـــرٍ مَعًا *** كَجُلْمُودِ صخر حطَّهُ السَّيلُ من عَلِ

و عرفه النابغة فقال[8]:

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَ المُلُـــوكُ كَوَاكِبُ *** إِذَا طَلَعَتْ لَـــــمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

و عرفه عنترة و طرفه و الأعشى، و غيرهم كثير. و عندما أشرقت شمس الإسلام، سار شعراؤه سيرة من قبلهم مع تأثرهم بتصوير القرآن الكريم.

و لم يعرّف التشبيه إلا عند المبرّد فأكّد ما نقلنا عن الجاحظ من أن وجه الشبه يقع في بعض الصفات لا كلها و بين علاقة طرفيه التي يشترط فيها أن تكون علاقة اتحاد، و علاقة خلاف أو تباين، في نفس الوقت فقال: « و اعلم أن للتشبيه حدّا. فالأشياء تشابه من وجوه و تباين من وجوه: فإنّما ينظر إلى التشبيه من وجوه وقع ».[9]

و البحث في هاتين العلاقتين أدّى بالمبرّد إلى « اكتشاف غاية في الأهمية لو أدرك هو، أو البلاغيّون المتأخّرون، أبعاده النظرية لكانوا فتحوا لعلم المعاني آفاقا لم يلجها إلاّ في النصف الثاني من القرن العشرين ».[10]

---

[7]- لم أجد البيت في الديوان.

[8]- ديوان النابغة الذبياني: 18.

[9]- الكامل: 54/2.

[10]- التفكير البلاغي عند العرب: 363.

و يتمثّل هذا الاكتشاف في أن التشبيه « ممكن، لأن ما يظنّ أنه وحدة معنوية لا تتجزّأ. إنّما هو في الحقيقة جسم مركّب من وحدات تتكتّل مع بعضها لتكون المعنى الكلّي الذي يبرز من اللّفظة ».[11]

و دليل ذلك قوله: « فإنّما ينظر إلى التشبيه من وجوه وقع فإن شبّه الوجه بالشمس فإنّما يريد الضياء و الرونق و لا يراد العظم و الإحراق ».[12]

فلفظة "الشمس" تعبّر عن « معنى مفرد في الظاهر، عبّر عنه بلفظ مفرد، إلاّ أنه مركّب لمن تعمّقه، من عدد من "المعانم[*]" و هي بمثابة الهباءات في الجسم الكيمياوي. فالشمس: ضياء، رونق، عظم، إحراق، ... ».[13]

و بهذا يكون المبرّد قد فتح للكاتب آفاقا واسعة للتصوير و ترك للقارئ و الناقد حرّية التأويل بحكم ضرورة تقاطع الأشياء في جهة من جهات هذا الحقل المعنوي الشاسع. و هذا منطوق عبارة المبرّد: "و إنّما نقصد من كلّ شيء إلى شيء"[14] و هي عبارة تكشف عن اتساع الأبعاد أمام عملية التصوير الفنّي، و تفتح للأجيال المقبلة بابا من أبواب النقاش الأدبي الهام، لمعرفة ما إذا كانت قيمة الصورة في تفطن الشاعر إلى العلاقات الخفية و شعوره بما لا يشعر به غيره، أم أن قيمتها رهينة حجم المعاني المتقاطعة؟ .[15]

---

[11]- التفكير البلاغي عند العرب: 363.
[12]- الكامل: 54/2.
[*]- إن فكرة "المعنم" كانت من أهم مكتسبات علم المعاني البنيوي.ينظر: التفكير البلاغي عند العرب: 364.
[13]- التفكير البلاغي عند العرب: 363-364.
[14]- الكامل: 55/2.
[15]- ينظر: التفكير البلاغي عند العرب: 364.

ثانيا: أقسامه:

إنّ المبرّد أوّل من قسم التشبيه إلى أقسام عديدة هي:

1-التشبيه المصيب:[16]

يعتبر المبرّد التشبيه المصيب من أهمّ أقسامه « لأنّه يحقّق صفات التطليق بين الأطراف الخارجية لعناصر المشابهة، و يقوم على لياقة عقلية واضحة ».[17]

و يعني التشبيه المصيب عنده ذلك التشبيه الذي « لا يتجاوز الواقع، و إنّما يصيب القول دون إفراط. و هو ما اتفق الناس على صدقه و عدم تجاوزه الحدود المتعارف عليها ».[18]

وقف المبرّد عند بيت لامرئ القيس، كان اللّغويون قبله و بعده معجبون به إعجابا كبيرا، و هو قوله[19]:

كَــــأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَ يَابِسًا *** لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ وَ الحَشَفُ البَالِي

[16]- للتوسّع ينظر: الكامل: 2/43-46-77.
[17]- الصورة الفنّية في التراث النقدي و البلاغي: 214.
[18]- المختصر: 67.
[19]- ديوان امرئ القيس: 145.

و اعتبره من أحسن التشبيهات المصيبة حيث قال: « فأحسن ذلك ما جاء بإجماع الرواة ما مرّ لامرئ القيس في كلام مختصر أي بيت واحد من تشبيه شيء في حالتين بشيئين مختلفين »[20]. و علق عليه بقوله: « فهذا مفهوم المعنى فإن اعترض معترض، فقال: فهلاّ فصّل فقال كأنه رطبا العنّاب و كأنّه يابسا الحشف، قيل له: العربي الفصيح الفطن اللّقن يرمي بالقول مفهوما، و يرى ما بعد ذلك ذكر من التكرير عيا »[21].

لقد كان هذا الإعجاب الواضح ببيت امرئ القيس مبررا، لأن التشبيه تتوافر فيه كل صفات الدقة و الإصابة و الصحة، فضلا عن أن امرأ القيس جمع تشبيهين في بيت واحد و هذه براعة شكلية لفتت الأنظار.

و من التشبيه المصيب أيضا أبياتا نسبها لتوبة بن الحمير في حين أن أبا الحسن يقول أنّها لمجنون بني عامر، و هي[22]:

كَـــــــأَنَّ القَلْبَ لَيْلَــةَ قِيلَ يُغْدَى*** بِلَيْلَى العَــــــــامِرِيَّةِ أَوْ يُـــــــرَاحُ

قَطَـــــــاةٌ عَزَّهَـــــا شَرَكٌ فَبَاتَتْ *** تُعَــــالِجُهُ، وَ قَدْ عَلِقَ الجَنـــَاحُ

لَهَـــا فَرْخَـــــانِ قَدْ عَلِقَـــا بِوَكْرٍ *** فَعُشُّهُمَــــــا تُصَفِّقُــــــهُ الرِّيَـــــاحُ

فَلاَ بِاللَّيْـــــلِ نَالَـــــتْ مَا تُرَجِّي *** وَ لاَ بِالصُّبْحِ كَــــانَ لَهَـــــا بَرَاحُ

و علّق عليها قائلا: « و قد قال الشعراء قبله و بعده فلم يبلغوا هذا المقدار»[23].

بينما نجد مصطفى الصاوي الجويني يحلل هذه الأبيات، تحليلا دقيقا يبين فيه أثر هذه الأبيات على النفس، فيقول: « إذا كان الرسم خطوطا و ألوانا تصور فإنّ

[20]– الكامل: 40/2

[21]– نفسه: 40/2-41.

[22]– ديوان توبة بن الحمير– عني بتحقيقه و شرحه خليل ابراهيم العطية– دار صادر بيروت– ط1– 1998م: 85.

[23]– الكامل: 44/2.

الشاعر هنا قد رسم بخياله موقفا عاطفيا مؤثرا يفيض حيوية و إحساسا صادقا – رحل الأهل بالمحبوبة ليلى– و لا حيلة لها حين يراح بها أو يجاء –ضعيفة مستسلمة– و لأنه و إيّاها كالشخص الواحد فقد نقلت إليه عدوى ضعفها، صار قلبه حين غادرته كالقطاة، خدعها ما انغرز في جناحها، و الشرك هنا الأيام الممتلئة بحلو الأماني، فلما جذبت جناحه صار عاجزا عن الطيران.

في آفاق الأمل و السعادة، هو جناح مجروح، و محبوبته جناح آخر ممسوك، تأكيد ثان أنهما شخص واحد، ثم العجز و الحيرة في مواجهة الكارثة، هما فرخان أولهما فرخان؛ سيان، فالصورة رمز، محبوسان تلعب بوكرهما الرّيح، جنة حبهما تزلزلها رياح القدر، و يجيء إظلام لا يستطيعان تحت ستاره أن يخلصا مما هما فيه، و يجيء صباح قد يأملان فيه الفرج و لا فرج، و الظلمة كآبة و الإصباح أمل، و لا نجاة لهما مع اكتئاب أو تأميل... أي حيرة و أي صدق في تصوير الحسّ الوجداني تصويرا رامزا .

و طريف أن يكون البيت الأول حاكيا لموقف ليلى و الثاني لموقف الشاعر المحبّ الذي ضعف أمام الكارثة ثم البيتان الثالث و الرّابع يشترك فيه المحبّان المقهوران على أمرهما و هكذا شاء الشاعر بعد أن فنى في محبوبته أن يشكل الأبيات تشكيلا يأخذ كل واحد منهما فيه خطا متماثلا ».[24]

و من هنا يمكن القول: إنّ المبرّد كان يتطلب من التشبيه الإصابة « و الإصابة و المقارنة في التشبيه مصطلحان يمكن أن يندرجا تحت ما نسميه بالتناسب المنطقي بين أطراف التشبيه، لأنّهما يرتبطان –في النهاية– بمدى التوافق الشكلي بين الأطراف ».[25]

---

[24]– البيان فن الصورة– لمصطفى الصاوي الجويني– دار المعرفة الجامعية– إسكندرية– 1993م: 83-84.
[25]– الصورة الفنّية: 214.

و المبرّد حين يختار نماذج التشبيه المصيب يكشف لنا عن ذوق لا بأس به، و هو حين يتقبل كثيرا من التشبيهات فإنّه يضفي عليها قيمة واضحة، لا لشيء إلاّ لأنّها تحقق فكرته عن الإصابة بمعناها الخارجي و المنطقي .

2-التشبيه المتجاوز المفرط:

التشبيه المفرط هو التشبيه « المبالغ فيه، أو المبالغ في الصّفة التي تجمع بين المشبّه و المشبّه به »[26]. أو بمعنى آخر هو التشبيه الذي يتجاوز الحدود، و يتخطى ما تعارف الناس عليه .[27]

و يمثل له في القرآن الكريم بقول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَ لَهُ الجَوَارِ المُنْشَآتُ فِي البَحْرِ كَالأَعْلَامِ﴾[28].

أما التشبيه المفرط في أشعار العرب فيختار المبرّد قول الخنساء[29]:

وَ إِنَّ صَخْــــرًا لَتَأْتَـــــمُّ الهُدَاةُ بِهِ *** كَـــــأَنَّهُ عَلَمٌ فِــــي رَأْسِــــهِ نَارُ

و يعلق عليه قائلا: « فجعلت المهتدى يأتم به، و جعله كنار في رأس علم و العلم الجبل »[30].

فتشبيه الخنساء نابع عن البيئة، طول السرى في الصحراء، النار أعلى الجبل ليهتدي الساري. هو تشبيه صادق جميل في عصره.

---

[26]- علم المعاني، البيان، البديع- لعبد العزيز عتيق- دار النهضة العربية للطباعة و النشر- بيروت: 269.
[27]- ينظر: المختصر: 67.
[28]- سورة الرحمن: 24.
[29]- ديوان الخنساء-دار بيروت للطباعة و النشر- ط1- 1398هـ/1978م: 49.
[30]- الكامل: 50/2.

و من أفراط التشبيه أيضا قول أبي خراش الهذلي، يصف سرعة ابنه في العدو[31]:

كَأَنَّهُـــــــمْ يَسْعَوْنَ فِـــــي إِثْرِ طَائِرٍ *** خَفِيفِ الْمُشَاشِ عَظْمُهُ غَيْرُ ذِي نَحْضِ[*]

يُبَـــــادِرُ جُنْحَ اللَّيْـــــلِ فَهُوَ مُهَابِذٌ *** يَحَثُّ الجَنَـــاحَ بِالتَّبَسُّـــطِ وَ القَبْضِ[**]

فالقوم الذين يعدون خلف خراش كأنهم في سرعتهم يتعلقون بطائر خفيف قليل اللحم يسرع حين يقبل الليل عليه، و يحث جناحيه ببسطهما و قبضهما.

و من شعر المحدثين المفرط المتجاوز ذكر المبرّد أبياتا: « قال: بعض المحدثين في رجل يهجوه و المهجوّ داود بن بكر و كان وليّ الأهواز »[32]، و الشعر لأبي الشمقمق[33]:

وَ لَهُ لِحْيَـــــــةُ تَيْـــــــسٍ *** وَ لَهُ مِنْقَـــــارُ نَسْـــــــرٍ

وَ لَهُ نَكْهَـــــــةُ لَيْـــــــثٍ *** خَـــــالَطَتْ نَكْهَـــةَ صَقْـــــرٍ

إنّ الإفراط في التشبيه لا يعدّ كذبا و إنّما هو : قول صادق موشى بزينة المبالغة، تلك التي لاحظها المبرّد و أعجب بها أيما إعجاب.[34]

---

[31]- شعر الهذليين في العصرين الجاهلي و الإسلامي- أحمد كمال زكي- دار الكاتب العربي للطباعة و النشر- 1389هـ/1969م- ط1: 193. و اللفظ بتمامه:

كَـــــأَنَّهُمْ يَشَّبَّثُـــــونَ بِطَائِرٍ *** خَفِيفِ المُشَاشِ عَظْمُهُ غَيْرُ ذِي نَحْضِ

يُبَادِرُ قُرْبَ اللَّيْلِ فَهُوَ مُهَابِذٌ *** يَحُثُّ الجَنَـــــاحَ بِالتَّبَسّـــــُطِ وَ القَبْضِ

[*]- المشاشي: رؤوس العظام التي لا مخّ فيها. ينظر: لسان العرب: 347/6.

[**]- مهابذ: مسرع في مشيته و طيرانه. يحث: يحرك. التبسط: النشر. القبض: جمع جناحيه. ينظر: لسان العرب: 517/3- 130/2- 259/7- 213/7.

[32]- الكامل: 53/2.

[33]- ديوان أبي الشمقمق- جمعه و حققه و شرحه: واضح محمد الصمد- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1- 1415هـ/1995م: 44

[34]- ينظر: المختصر: 66-67.

و من التشبيه المفرط المتجاوز في كلام العرب « قولهم للسّخيّ هو كالبحر و للشجاع هو كالأسد و للشريف سما حتى بلغ النجم ».[35]

و لقد صرّح المبرّد بإعجابه بالتشبيه المتجاوز عندما قال: « و من تشبيههم المتجاوز الجيّد النظم قول أبي الطّمحان:

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَ وُجُوهُهُمْ *** دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الجِزْعَ ثَاقِبُهْ* »[36]

و لم يكتف المبرّد بمجرّد التعبير عن الإعجاب فتراه يحاول إيجاد سند نظري يدعم به موقفه، و يحلل مقاصد ركوب الإفراط و المبالغة و ذلك بالتعمق في فهم العلاقة الرابطة بين ركني التشبيه الأساسيين: المشبه و المشبه به.

فنجده بعد ذكر البيت يسترسل قائلا: « و يروى عن الأصمعي أنه رأى رجلا يختال في أزيّر في يوم قرّ في مشيته فقال له: ممّن أنت يا مقرور. فقال: أنا ابن الوحيد أمشي الخيزلى و يدفئني حسبي. و قيل لآخر في هذه الحال أما يوجعك البرد؟ فقال: بلى و الله و لكنّي أذكر حسبي فأدفأ ».[37]

إن المبرّد أعجب بهذا النوع من التشبيه و يستند في تبرير هذا الإعجاب بتفسير عقلي يقنع به من يحاول ردّ هذا القول، بالإضافة إلى أنّه قد أتى بنص قرآني علينا أن نتقبله دون مناقشة، و علينا بعد ذلك أن نتقبل تفسيره، لا عن صحة المبالغة و الإفراط في التشبيه فحسب، بل على جماله و سداده أيضا.

---

[35]– الكامل: 101/2.

*– الجزعة: قطعة من الليل. ثاقبه: منير و متوقد. ينظر: لسان العرب: 8/49-1/40.

[36]– الكامل: 102/2.

[37]– نفسه: 102/2.

إلاّ أننا لا نلبث أن نجد المبرّد في سياقات أخرى سيّء الظنّ بالمبالغة و التشبيه المتجاوز، متشبها بضرورة مطابقة الفن القولي للحقيقة الموضوعية أو أن يقع قريبا منها على الأقل. فبعد أن أورد قول الشاعر « في النحافة:

فَلَــــــوْ أَنَّ مَا أَبْقَيْتِ مِنِّــي مُعَلَّقٌ *** بِعُودِ ثُمَـــامٍ مَــا تَأَوَّدَ عُودُهَــا

(الثِّمَامُ* نَبْتٌ ضَعِيفٌ، وَاحِدَتُهُ ثُمَامَةُ) و هذا متجاوز كقول القائل: و يمنعها من أن تطير زمامها »[38].

و الشرح اللّغوي هنا من قبيل التعريض و الإشارة إلى التجاوز و شدّة المبالغة ثم انتقل إلى قانون عام في جودة الشعر و فضله في الحسن يقول: « و أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبّه، و أحسن منه ما أصاب به الحقيقة ».[39]

و ستتبوّأ هذه القاعدة صدارة المقاييس في جودة النص الأدبي عند عدد لا يستهان به من البلاغيين و النقاد. و من ثم تصبح القانون المتحكم في دراستهم للصورة الفنية .

3-التشبيه المقارب[40]:

هو ذلك التشبيه الصريح الذي يقوم بنفسه و لا يحتاج إلى تفسير أو تأويل، لأنه ظاهر مكشوف يتسم بالبساطة و الوضوح .[41]

فمن ذلك قوله: « و من حلو التشبيه و قريبه و صريح الكلام »[42] قول ذي الرّمة[43]:

---

*– الثمام: نبت ضعيف له خوص. ينظر: لسان العرب: 81/12.

38– الكامل: 172/1.

39– الكامل: 173/1.

40– للاطلاع ينظر: الكامل: 91/2.

41– ينظر: المختصر: 67.

42– الكامل: 89/2.

43– ديوان ذي الرمة: 290 و البيت بتمامه و لفظه:

وَ رَمْلٍ كَأَوْرَاكِ العَذَارَى قَطَعْتُهُ *** إذَا جَلَّلَتْهُ المُظْلِمَاتُ الحَنَادِسُ

وَ رَمْــــلٍ كَأَوْرَاكِ العَـــــــذَارَى قَطَعْتُهُ *** وَ قَــــدْ جَلَّلَتْهُ الظُّلُمَــــــاتُ الحَنَادِسُ*

إنّ هذا البيت اعتبره ابن الجنّيّ (ت 392هـ) من التشبيه المقلوب و قد عقد له فصلا في الخصائص و سماه "غلبة الفروع على الأصول" قال فيه: « هذا فصل من فصول العربية طريف؛ تجده في معاني العرب، كما تجده في معاني الإعراب. و لا تكاد تجد شيئا من ذلك إلاّ و الغرض فيه المبالغة ».[44]

ثم ذكر بيت ذي الرمة و علق عليه قائلا: « أفلا ترى ذا الرّمة كيف جعل الأصل فرعا و الفرع أصلا. و ذلك أن العادة و العرف في نحو هذا أن تشبّه أعجاز النّساء بكثبان الأنقاء... فقلب ذو الرّمة العادة و العرف في هذا، فشبّه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء. و هذا كأنّه يخرج مخرج المبالغة، أي قد ثبت هذا الموضع و هذا المعنى لإعجاز النساء و صار كأنّه الأصل فيه، حتى شبّه به كثبان الأنقاء ».[45]

و من أمثلة التشبيه المقارب عند المبرد نضيف قول الشّمّاخ في صفة الفرس[46]:

مُفِـــجُّ الحَوَامِي عَنْ نُسُـــورٍ كَأَنَّهَا *** نَـــوَى القَسْبِ تَرَّتْ عَنْ جَرِيمٍ مُلَجْلَجِ*

إذ قام المبرّد بشرح البيت قائلا: « قوله: مفجّ الحوامي، يريد مفرّق الحوامي فالحوامي نواحي الحافر، و النّسور واحدها نسر. و هي نكتة في داخل الحافر، و يحمد الفرس إذا طلب ذلك منه، و لذلك شبّه بنوى القسب. و ترّت سقطت،

*- أوراك: أعجاز. جلل: عظم. حنادس: شديد الظلمة. ينظر: لسان العرب: 10/509- 11/116- 6/58.

44- الخصائص: 1/300-302.

45- الخصائص: 1/300-302.

46-ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني- حققه و شرحه صلاح الدين الهادي- دار المعارف بمصر- ط1- 1388هـ/1968م: 78.

*- مفج: موسع مباعد. الحوامي: ميامن الحافر و مياسره. النوى: عجنة التمر و الزبيب. القصبي: الصلب. ترّت: سقطت و انقطعت. جريم: التمر اليابس. ملجلج: أدارها في فمه ثم قذفها. النسر: لحمة صلبة في باطن حافر الفرس من أعلاه. ينظر: لسان العرب: 2/339- 14/202-15/349-1/672-4/90-12/90-2/356-5/205.

و الجريم المصروم*، و الملجلج الذي قد لجلج مضغا في الفم ثم قذف لصلابته. و قوله: مفجّ ليس يريد الذي هو شديد التفرقة و لكن الانفصال عن النّسر، فإنّه إن اتسع و استوى أسفله فذلك الرّجح، و هو مذموم في الخيل، و كذلك إن ضاق و صغر، قيل له مضطر و كان عيبا قبيحا».[47]

فالتشبيه هنا واضح صريح إذ شبه الشاعر نسور الفرس بالنوى الصلبة.

4-التشبيه البعيد:

من تشبيهات القرآن البعيدة يذكر المبرّد آيتين كريمتين فيقول: « و قال الله عزّ و جلّ، و هذا البيّن الواضح ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ و السّفر الكتاب. و قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ﴾.

يرى المبرد أن هذه الآية تشتمل على تشبيه بعيد لأن السامع قد يظن أن الله سبحانه و تعالى شبه الذين حملوا التوراة بالحمار الذي يحمل الكتب و لا يعلم ما فيها لأنهم لم يعوا لغبائهم ما فيها، لكن المراد أنهم تعاموا عنها و أضربوا عن حدودها و أمرها و نهيها و لم يطبقوا ما فيها.

أمّا عن التشبيه البعيد في أشعار العرب فقد اختار المبرّد قول « الشاعر:

بَـــلْ لَوْ رَأَتْنِـــــي أُخْتُ جِيرَانِنَـــا *** إِذْ أَنَـــــا فِي الدَّارِ كَـــــأَنِّي حِمَـــارُ

فإنّما أراد الصحّة فهذا بعيد لأنّ السامع إنّما يستدل عليه بغيره».[48]

* – المصروم: المقطوع. ينظر: لسان العرب: 336/12.
47 – الكامل: 89/2.
48 – الكامل: 103/2.

إنّ الذي جعل التشبيه بعيدا في هذا البيت هو أنّ قصد الشاعر يختلف عمّا يفهمه الناس من التشبيه، فالسامع يتبادر إلى ذهنه، و لأوّل وهلة، إنما القصد من التشبيه بالحمار وصفه بالبلادة و الغباء و سوء التصرف و لا يطرق ذهنه أن مراد الشاعر من تشبيه نفسه بالحمار أنّه في غاية الصحّة و كمال القوة.

و لا شكّ أن الوصول إلى هذا المقصد يحتاج إلى التفسير و التأويل لأنه غير بيّن و غير واضح، و السامع يستدل عليه بغيره كما يقول المبرّد.

ثم إنّ تعليق المبرّد تضمن تفسيرا طريفا للإبعاد في قوله:"لأنّ السامع إنّما يستدل عليه بغيره" و هو يشير إلى « وجه من وجوه إدراك المعنى حيث تفسر اللّغة باللّغة و يقوم الاستعمال الدارج مقام العلامة الراشدة في المعنى. فكأنّه تتكون لدى الإنسان بمفعول الزمن، ردود فعل معينة تبادر بها، متى وقع المنبّه، إلى معنى دون معنى آخر، فإذا خرج مستعمل تلك العبارة عن المعنى اللّصيق بها يكون أبعد، و لاسيما إذا تعلق الأمر بالأمثال المشتركة الشائعة مثل المثال السابق ».[49]

و هذا النوع من التشبيه ليس عيبا لأن المراد منه دفع السامع إلى التمعن و اختبار فطنته.

5-التشبيه المليح[50]:

من مليح التشبيه عند المبرّد قول القائل[51]:

لَعَيْنَـــاكَ يَوْمَ البَيْنِ أَسْـــــرَعُ وَاكِفًا *** مِنَ الفِنَنِ المَمْطُـــــورُ وَ هُوَ مَـــرُوحُ

49– التفكير البلاغي عند العرب: 366–367.

50– للتوسع ينظر: الكامل: 2/104–109

51– الكامل: 2/104.

و يعتبر المبرّد هذا البيت مليحا لأنّ الشاعر سبّه دموع عيني محبوبته يوم الفراق بالغصن الذي يقع المطر على ورقه، ثم تهب الريح فيتساقط ماء المطر من الورق قطرات، و هي صورة رائعة.

و بعد ذكر هذا البيت أراد المبرّد أن يمثل للتشبيه المليح في أشعار المحدثين فقال: « ثم نذكر بعد هذا طرائف من تشبيه المحدثين و ملاحاتهم فقد شرطناه في الباب إن شاء الله. قال أبو العبّاس: و من أكثرهم تشبيها لاتساعه في القول و كثرة تعنّته و اتساع مذاهبه »[52] الحسن بن هانئ[53]، قال في مديحه الفضل بن يحي بن خالد بن برمك:

وَ كُنَّـــــا، إِذَا مَا الحَائِنُ الجدِّ غَرَّهُ *** سَنَى بَرْقِ غَاوٍ أَوْ ضَجِيجُ رِعَـــــادِ

تَرَدَّى لَهُ الفَضْلُ بنُ يَحْيَ بنُ خَالِدِ *** بِمـــــَاضِي الظُّبَى أَزْهَاهُ طُولُ نِجَادِ

أَمَـــــامَ خَمِيسٍ أُرْجُـــوَانٍ كَأَنَّهُ *** قَمِيصٌ مَكُـــــوكٌ مِنْ قَنًـــا وَ جِيَادِ*

فَمَـــــا هُوَ إِلاَّ الدَّهْرُ يَأْتِي بِصَرْفِهِ *** عَلَـــــى كُلِّ مَنْ يَشْقَى بِهِ وَ يُعَادِي .

و يبدأ المبرّد كعادته بشرح الكلمات الغامضة فيقول: « قوله الحائن الجدّ، يقال: حان الرّجل إذا دنا موته. و يقال: رَجُلٌ حَائِنٌ، و المصدر الحَيْنُ، و الجدّ الحظّ، و الجدّ و الجدّة مفتوحان، فإذا أردت المصدر من جددت في الأمر قلت أجدّ جدّا مكسور الجيم. و يقال جددت النخل أجدّه جدّا إذا صرمته. و يقال: جذذته جذّا و تركت الشيء جذاذا إذا قطعته قطعا» .[54]

[52]– نفسه: 105/2.
[53]– ديوان أبي نواس: 221.
*– خميس: الجيش المؤلف من خمسة فرق. مكوك: مزدحم. قنا: الرماح. ينظر: لسان العرب: 6/70–10/490–13/102.
[54]– الكامل: 105/2.

ثم يسترسل المبرّد في الشرح بذكر أبيات أخرى فيشرحها كما فعل مع الأولى ثم يعود لشرح أبيات أبي نواس فيقول: « و قوله: سنى برق غارٍ، و السّنى من الضياء مقصور. قال الله جلّ و عزّ: ﴿يَكَادُ سَنَى بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ ، و السناه من المجد الممدوح... و ضربه الحسن ههنا مثلا و جمع الرّعد فقال رعادٌ كقولك: كلب و كلاب و كعب و كعاب. و قوله بماضي الظبى، ظبّة كل شيء حدّه، يقال: وخزه بظبّة السيف يراد بذلك حدّ طرفه. و قوله أزهار طول نجاد، النجاد حمائل السّيف، و أزهاره رفعه و أعلاه... و الأرجوان الأحمر ».[55]

و اعتبر المبرّد هذا التشبيه مليحا لأن الشاعر يقول إنه ينقض بجيش أحمر من الدماء، و كأنه قميص حيك من الرماح و من الخيول.

6-التشبيه الجيّد[56]:

إنّ التشبيه الجيّد هو المظهر العملي لقدرات الشاعر الذهنية الخاصة لا تتوافر فيمن حوله من البشر العاديين، و هي قدرات تمكّنه من أن يعرف –أكثر مما يعرفون– و يدرك– أكثر مما يدركون– العلاقات الكامنة بين الأشياء.[57]

لذا فإن التشبيه الجيّد عند المبرّد هو « قرين الفطنة و التعرف على ما لا يعرفه الآخرون»[58]، و يظهر ذلك حين قال: « أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا أشبه، و أحسن منه ما أصاب به الحقيقة و نبّه فيه بفطنته على ما يخفى عليه».[59]

---

[55]– نفسه: 2/106–107.
[56]– للتوسع ينظر: الكامل: 2/108–109.
[57]– ينظر: الصورة الفنّية: 131.
[58]– الموشّح: مآخذ العلماء على الشعراء في عدّة أنواع من صناعة الشعر– للمرزباني– تحقيق علي محمّد البجاوي– دار الفكر العربي– ط1– 1385هـ/1965م: 116.
[59]– الكامل: 1/172.

و من الشعراء الذين عدّهم المبرّد ذوي فطنة مكّنتهم من قول الشعر الذي يحتوي على التشبيه الجيّد طرفة: « و من التشبيه الجيّد في هذا الشعر الذي ذكرنا»[60] قوله[61]:

تَرَى النَّـــاسَ أَفْوَاجًا إِلَى بَابِ دَارِهِ *** كَأَنَّهُـــــمْ رِجْلاً دَبَـــــى وَ جَرَادِ

فَيَوْمٌ لإِلْحَـــاقِ الفَقِيرِ بِذِي الغِنَى *** وَ يَوْمُ رِقَـــــابٍ بُوكِرَتْ لِحَصَـــادِ

شبّه الشاعر هنا ازدحام الناس أمام دار ممدوحه بالجراد و دبيب الأرجل.

و يدرج المبرّد بعد هذه الأبيات لطرفة الشاعر الجاهلي أبياتا أخرى لشاعر محدث هو أبو نواس الحسن بن هانئ فقال: « و من التشبيه الجيّد قوله»[62]أي أبي نواس الحسن بن هانئ[63]:

فَكَـــــأَنِّي بِمَـــــا أُزَيِّنُ مِنْهَـــا *** قَعَدِيٌّ يُزَيِّـــــنُ التَّحْكِيمَـــــا[*]

يقول الشاعر : إنه كالقعدي ، يقعد عن شربها و يكتفي بوصفها كالخوارج الذين قعدوا عن الجهاد و حسنوا أمر التحكيم .

و في هذا الموضع يذكر لنا المبرّد سبب قول هذا البيت فيقول: « و في سبب هذا الشعر أن الخليفة تشدّد عليه في شرب الخمر و حبسه من أجل حبسا طويلا»[64]. فقال[65]:

---

[60]– نفسه: 108/2.
[61]– لم أجد البيت في الديوان.
[62]– الكامل: 108/2.
[63]– ديوان أبي نواس: 536.
[*]– القعدي: طائفة من الخوارج كانت تحسن القعود عن الجهاد، بعد أن أوشكوا على الهلاك من كثرة من قتل منهم. شرح ديوان أبي نواس: 536.
[64]– الكامل: 108/2.
[65]– ديوان أبي نواس: 536.

أَيُّهَـــا الرَّائِحَـــانِ بِاللَّوْمِ لُومَا *** لاَ أَذُوقُ الُمـــدَامَ إِلاَّ شَمِيمَا

نَـــالَنِي بِالَملاَمِ فِيهَـــا إِمَـــامٌ*** لاَ أَرَى لِـــي خِلاَفَهُ مُسْتَقِيمَا

فَاصْرِفَـــاهَـــا إِلَـــى سِوَايَ فَإِنِّي*** لَسْتُ إِلاَّ عَلَـــى الحَدِيثِ نَدِيمَا

كُبْـــرُ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ *** أَنْ أَرَاهَـــا وَ أَنْ أَشُمَّ النَّسِيمَا

فَكَـــأَنِّي بِمَا أُزَيِّنُ مِنْهَـــا*** قَعَدِيٌّ يُزَيِّـــنُ التَّحْكِيمَـــا

لَمْ يُطِقْ حَمْلَهُ السِّـــلاَحَ إِلَى الحَرْ*** بِ فَأَوْصَـــى الَمطِيقَ إلاَّ يُقِيمَا

و يبدو أن من أسباب جودة التشبيه عند المبرّد السبق إلى المعنى لأنه علّق على هذه الأبيات بقوله: « فهذا المعنى لم يسبق إليه أحد».[66]

7-التشبيه الحسن[67]:

من التشبيهات التي نالت استحسان المبرّد قول جرير في صفة الخيل[68]:

يَشْتَفْـــنَ لِلنَّظَرِ البَعِيدِ كَإِنَّمَـــا *** إِرْنَـــانُهَا بَوَائِـــنُ الأَشْطَـــانِ*

[66]– الكامل: 108/2.

[67]– من أراد التوسع فلينظر: الكامل: 47/2–78–91.

[68]– البيت غير موجود في الديوان.

*– إرنان: الصوت الشديد. الأشطان: الحبل الطويل الشديد الفتل يستسقى به و تشد به الخيل. ينظر: لسان العرب: 187/13– 237/13.

و شرحه بقوله :« يشتفن و يتشوّفن في معنى واحد. قوله: و كأنّما إرنانها ببوائن الأشطان، أراد شدّة صهيلها. يقول كأنّما يصهلن في آبار واسعة تبين أشطانها عن نواحيها. و الأشطان الحبال ».[69]

و من حسن التشبيه أيضا عند المبرّد قول عنترة[70]:

غَـــــادَرْنَ نَضْلَـــــةً فِـــي مَعْرَكٍ*** يَجُــــــرُّ الأَسِنّـــــَةَ كَالــمُحْتَطِبِ

و سبب اسحسان المبرد للبيت أن عنترة شبه المطعون بالرماح و هو يغادر المعركة بحامل الحطب .

و بما أن المبرّد قد وعدنا في أول كلامه عن التشبيه بأنّه سيورد تشبيهات المحدثين فإنه ذكر أبياتا لبشّار اعتبرها من حسن التشبيه فقال: « و من حسن تشبيه المحدثين»[71]. قول بشّار[72]:

وَ كَـــــأَنَّ تَحْـــــتَ لِسَـــانِهَا *** هَــــــارُوتَ يَنْفُـــــثُ فِيهِ سِحْـــرًا

وَ نَخَــــــالُ مَـــا جَمَعْتْ عَلَيْهِ *** بَنـَــانُهَـــــا ذَهَبًـــــا وَ عِطْــــرَا

استحسن المبرد في هذا البيت لأن بشار شبه تأثير كلام محبوبته في نفس سامعها بتأثير السحر و هو مأخوذ من قول النبي –صلى الله عليه و سلم – " إن من البيان لسحرا ". و لما اشتهر هاروت بتمام المقدرة على السحر بالغ في السحر المشبه به بأنه سحر هاروت ، و ذكر هاروت تخييل. و جعل هاروت نافثا لأنهم يعالجون السحر بالنفث في العقد كما جاء في سورة الفلق.

---

[69]– الكامل: 49/2.
[70]– البيت غير موجود في الديوان.
[71]– الكامل: 112/2.
[72]– ديوان بشّار ابن برد– جمع و تحقيق و شرح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور– الشركة التونسية للتوزيع– ط1– 1976م: 70/4.

و استحسن المبرّد بعض التشبيهات التي وردت في كلام العرب المنثور و قدمها لنا قائلا: « و التشبيه كما ذكرنا من أكثر كلام الناس. و قد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم و عن أصل أخذوه أن شبّهوا عين المرأة و الرجل بعين الظبي أو البقرة الوحشيّة و الأنف بحدّ السّيف، و الفم بالخاتم و الشعر بالعناقيد و العنق بإبريق فضة و السّاق بالجمّار*، فهذا كلام جار على الألسن». [73]

و قد قال سراقة بن مالك بن جعشم: « فرأيت رسول الله –صلى الله عليه و سلم– و ساقاه باديتان في غرزه كأنّها جمّارتان ». [74]

8-التشبيه العجيب[75]:

و نجد المبرّد يتعجّب من بعض التشبيهات و يفرّق بينها و بين التمثيل في قوله: « و من تمثيل امرئ القيس العجيب»[76] قوله[77]:

*– الجمار: قلب النخلة و شحمها. شبه ساقه ببياضها. ينظر: لسان العرب: 147/4.

[73]– الكامل: 103/2–104.

[74]– نفسه: 104/2.

[75]– للتوسع ينظر: الكامل: 41/2–42–46–49.

[76]– الكامل: 41/2.

[77]– ديوان امرئ القيس: 70.

كَـــــأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا *** وَ أَرْحُلِنَا الجَزْعُ الَّـــذِي لَمْ يُثَقَّـــبِ*

شبه امرؤ القيس هنا صورة عيون الوحش و هي تدور حول خيامهم ليلا بالجزع قبل أن يثقب و تضعه النساء.

و قال أيضا: « و من أعجب التشبيه»[78] قول النابغة[79]:

فَإِنَّكَ كَاللَّيْـــــلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي *** وَ إِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَـــأَى عَنْكَ وَاسِعُ

و قوله[80]:

خَطَـــــاطِيفُ حُجْنٌ فِي حِبَالٍ مَتِينَةٍ *** تَمُدُّ بِهَـــا أَيْدٍ إِلَيْـــــكَ نَـــــوَازِعُ*

إن عناصر هذا التشبيه الحسي مستمدة من البيئة الجاهلية، حيث رهبة الليل و حيث يندر الماء، فيحتال للحصول عليه بالخطاطيف و الحبال و من الآبار.

و قوله أيضا[81]:

فَإِنَّـــــكَ شَمْـــسٌ وَ الْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ*** إِذَا طَلَعَتْ لَـــــمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

---

*- الجزع: خرز يماني. ينظر: لسان العرب: 337/8.

78- الكامل: 41/2.

79- ديوان النابغة الذبياني: 81.

80- الكامل:41/2.

*- خطاطيف: ج/ الخطاف: حديدة حجناء تعقل بها البكرة من جانبيها. حجن: مائلة أو معوجة. نوازع: متخاصمون. ينظر: لسان العرب: 77/9-108/13-351/8.

81- الكامل :41/2.

فالنابغة يشبه في هذا البيت ممدوحه بالشمس، و يشبه غيره من الملوك بالكواكب لأن عظمة ممدوحه تغض من عظمة كل ملك كما تخفي الشمس كما تخفي الشمس الكواكب، و لما كانت حال الممدوح و غيره من الملوك، و كل منهما مشبه، مجهولة غير معروفة، فقد أتى بالمشبه به لبيان أن حال الممدوح مع غيره من الملوك، كحال الشمس مع الكواكب، فإذا ظهر أخفاهم كما تخفي الشمس الكواكب بطلوعها.

9-التشبيه المحمود:

من التشبيه المحمود عند المبرّد قول الشاعر[82]:

طَلِيـــــقُ اللهِ لَـــــمْ يَمْنُـــــنْ عَلَيْهِ*** أَبُـــــو دَاوُدَ وَ ابْـــــنُ أَبِي كَثِـــيرِ

وَ لاَ الحَجّـــــاَجُ عَيْنَـــــي ْبِنْتِ مَاءٍ*** تُقَلَّبُ طَرْفَهَـــــا حَذَرَ الصُّقُـــــورِ

و يشرح المبرّد الأبيات و يعلّل نوعا ما سبب وصفها بالمحمودة قائلا: « و هذا غاية في صفة الجبان، و نصب عيني بنت ماء على الذم و تأويله أنه إذا قال: جاءني عبد الله الفاسق الخبيث. فليس يقول: إلا و قد عرفه بالخبث و الفسق، فنصبه بأعني و ما أشبهه من الأفعال نحو أذكر، و هذا أبلغ من الذم أن يقيم الصفة مقام الاسم. و كذلك المدح»[83].و قول الله تبارك و تعالى: ﴿وَ المُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾[84] بعد قوله: ﴿لَكِنْ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ﴾[85] « إنّما هو على هذا، و من زعم أنه أراد و من المقيمين الصّلاة فمخطئ في قول البصريين لأنّهم لا يعطفون الظاهر على المضمر المخفوض. و من أجازه من غيرهم فعلى قبح كالضرورة»[86].

---

[82]– نفسه: 44/2.
[83]– نفسه: 44/2.
[84]– سورة النساء: 162.
[85]– سورة النساء: 162.
[86]– الكامل: 44/2.

10-التشبيه المختصر:

إنّ المبرّد كما حبّذ الكلام المختصر المفهوم نجده هنا أيضا يتحدّث عن التشبيه المختصر فيقول: « و العرب تختصر في التشبيه، و ربّما أومأت به إيماء قال أحد الرّجّاز:

بِتْنَـــــا بِحَسَّــــــانِ وَ مِعْــزَاهُ تَئِطُّ *** مَـــــــازِلْتُ أَسْعَـــــى بَيْتِهِمُ وَ أَلْتَبِطْ[*]

حَتَّـــــــى إِذَا كَـــــــانَ الظَّلاَمُ يَخْتَلِطْ*** جَــاؤُوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطْ[**]

يقول في لون الذئب، و اللّبن إذا جهد و خلط بالماء ضرب إلى البعثرة».[87]
و من التشبيه المختصر أيضا أنشد الأصمعي فقال[88]:

وَ تَشْرَبُـــــــهُ مَحْضًا وَ تَسْقِي عِيَالَهَا *** سَجَــــــاحًا كَأَقْرَابِ الثَّعَالِبِ أَوْرَقَـــا

« السّجاج الرّقيق المذوق و القربان الجنبان و الواحد قرب. من ذلك قول عمر بن الخطاب –رحمه الله- لرسول الله –صلى الله عليه و سلم- و قد شاور في رجل جنى جناية و جاء قومه يشفعون له، فشفع له قوم آخرون. فقال له عمر: يا رسول الله، أرى أن توجع قربيه. فقال القوم: يا رسول الله إنّك لن تشتدّ على أمّتك بقول عمر، فنزل إليه جبريل –صلى الله عليه و سلم- فقال له ثلاثا: يا محمد، القول قول عمر شدّ الإسلام بعمر. فخرج رسول الله (ص) فضرب الرّجل. و الأورق لون

---

[*]– تئط: مدت أصواتها. ألتبط: التمرغ و التقلب. ينظر: لسان العرب: 257/7-388/7.
[**]– مذق: اللبن. ينظر: لسان العرب: 340/10.
[87]– الكامل: 113/2.إن المشبه و المشبه به في هذا البيت يلمحان من التركيب، و هذا الضرب من التشبيه سماه المتأخرون التشبيه الضمني، و مثله قول أبي فراس:
سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمُ *** وَ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ
[88]– نفسه: 113/2.

بين الخضرة و السّواد، يقال: جمل أورق بيّن الورقة، و هو ألأم ألوان الإبل عند العرب، و أطيبها لحما».[89]

11-تشبيهات غريبة مفهومة[90]:

يعتبر المبرّد بعض التشبيهات غريبة و رغم ذلك يجدها مفهومة من ذلك قول جرير[91] في يزيد بن عبد الملك، و أمّه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان:

الحَـــــزْمُ وَ الجُودُ وَ الإِيمَانُ قَدْ نَزَلُوا *** عَلَى يَزِيدَ أَمِــينِ اللهِ فَـــاحْتَفَلُـــوا

ضَخْـــــمُ الدَّسِيعَةِ وَ الإِيمَـانِ غُرَّتُهُ *** كَالبَدْرِ لَيْلَةَ كَـــادَ الشَّهْـــرُ يَنْتَصِفُ*

و قال أبو عبد الرحمن العطوي[92]:

قَـــدْ رَأَيْنَا الغَزَالَ وَ الغُصْنَ وَ النَّجْمَيْنِ شَمْسَ الضُّحَـــــى وَ بَدْرَ الظَّـــــلاَمِ

فَوَحَـــــقِّ البَيَــــانِ يَعْضُـــدُهُ البُرْ*** هَـــــانُ فِــــي مَأْقِطِ أَلَدِّ الخِصَامِ*

مَـــــا رَأَيْنَا سِــــــوَى المَلِيحَةِ شَيْئًا*** جَمَعَ الحُسْـــــنَ كُلَّهُ فـــــِي نِظَامِ

فَهِيَ تَجْرِي مَجْرَى الأَصَالَةِ فِي الرَّأْ *** يِ وَ مَجْـــرَى الأَرْوَاحِ فِي الأَجْسَامِ

و يشرح المبرّد الغريب في هذه الأبيات بقوله: « البرهان الحجّة»[93]، قال الله عزّ و جلّ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[94] . أي « حججكم، و المأقط

89– الكامل: 2/113–114.
90– للتوسع ينظر الكامل: 2/56–57.
91– ديوان جرير: 307.
*– الدسيعة: العطية. الغرّة: بياض في الوجه. ينظر: لسان العرب: 8/85–5/14.
92– الكامل: 2/56.
*– يعضد: يعين. مأقط: الموضع الذي يقتلون فيه. ينظر: لسان العرب: 3/293–7/258.
93– الكامل: 2/56.
94– سورة البقرة: 111

موضع الحرب فضربه مثلا لموضع المناظرة و المحاجّة، و الألدّ الشديد الخصومة»[95].
قال تبارك و تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾[96] و قال: ﴿وَ هُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ﴾[97].
و علّق المبرّد قائلا: « فهي تشبيهات غريبات مفهومة».[98]

12-التشبيه المطرد:

من التشبيه المطرد على ألسنة العرب حسب المبرّد: « ما ذكروا في سير النّاقة و حركة قوائمها. قال الراجز[99]:

كَـــأَنَّهَا لَيْلَـــةَ غِـــبِّ الأَزْرَقِ *** وَ قَدْ مَدَّدْنَـا بَاعَهَـــا لِلسُّـــوقِ

قوله: « ليلة غبّ الأزرق، إنّما يعني موضعا و أحسبه ماء لأنهم يقولون نطفة زرقاء و هي الصافية ».[100]
و قال الشّمّاخ[101]:

كـــأَنَّ ذِرَاعَيْهَـــا ذِرَاعًا مُدِلَّةً *** بُعَيْدَ السِّبَابِ حَـــاوَلَتْ أَنْ تَعَذَرَا

مِنَ البَيْضِ أَعْطَافًا إِذَا اتَّصَلَتْ دَعَتْ*** فِرَاسَ بْنُ غَنَـــمْ أَوْ لَقَيْطَ بْنُ يَعْمَرَا

بِهَـــا شَرْقٌ مِنْ زَعْفَرَانٍ وَ عَنْبَرَ *** أَطَـــارَتْ مِنَ الحُسْنِ الرِّدَاءَ المُحَبَّرَا

تَقُـــولُ وَ قَدْ بَلَّ الدُّمُوعُ خِصَارَهَا*** أَبَـــى عِفَّتِي وَ مَنْصِبِي أَنْ أُعَيَّـــرَا

[95]- الكامل: 56/2.
[96]- سورة مريم: 97.
[97]- سورة البقرة: 204.
[98]- الكامل: 56/2.
[99]- نفسه: 84/2.
[100]- نفسه: 84/2.
[101]- ديوان الشماخ: 134- 136..

كَـــــأَنَّ بِذِفْرَاهَا مَنَــادِيلَ فَارَقَتْ*** أَكُفَّ رِجَـــــالٍ يَعْصِرُونَ الصَّنَوْبَرَا

كَأَنَّ ابْنَ آوَى مُوثَقٌ تَحْتَ غَرْضِهَا*** إِذَا هُـــــوَ لَمْ يُكْلِــــمْ بِنَابَيْهِ ظُفَّرَا

فالشاعر هنا « شبّه يديها بيدي مدلّة بجمال و منصب قد سابّت و أقبلت تعتذر و تشير بيديها، فوصف جمانا الذي به تدلّ و منصبها المتصل بمن ذكرته. و قوله: أطارت من الحسن الرّداء المحبّرا، يقول هي مدلّة بجمالها فلا تختمر فتستر شيئا عن الناظر لأنها تبتهج بكل ما في وجهها و رأسها».[102]

كما أورد المبرّد مجموعة من التشبيهات التي عرفها العرب و تعوّد عليها منها تشبيه النساء ببيض النعام. فقال: « و العرب تشبّه النساء ببيض النعام تريد، نقاءه و نعمة لونه»[103]. و قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾[104].

و قال أيضا:« فالمرأة تشبّ بالسحابة لتهاديها، و سهولة مرّها[105]. قال الأعشى[106]:

كَـــــأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا *** مَرُّ السَّحَابَةِ لاَ رَيْثٌ وَ لاَ عَجَـــــلُ»

الريث هو:« الإبطاء فهذا ما تلحقه العين منها فإمّا الخفّة فهي كأسرع مارّ و إن خفي ذلك على البصر».107 ومثلها قول الله عزّ و جلّ: ﴿وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[108].

[102]– الكامل: 85/2.
[103]– نفسه:54/2.
[104]– سورة الصافات: 49.
[105]– الكامل: 55/2.
[106]– ديوان الأعشى– دار صادر بيروت– ط1– 1414هـ/1994م: 144.
[107]– الكامل: 55/2.
[108]– سورة النمل: 88.

و العرب تشبّه المرأة« بالشمس و القمر، و الغصين و الغزال و البقرة الوحشية و السّحابة البيضاء و الدرّة و البيضة و إنّما تقصد من كلّ شيء إلى شيء »[109]

كما وردت في القرآن الكريم نفس التشبيهات التي كان يشبه بها العرب المرأة و من ذلك قوله تعالى : : ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَ الْمَرْجَانُ﴾[110]. و قال تبارك وتعالى:﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾[111]، و المكنون « المصون. يقال كننت الشيء إذا صنته و أكننته إذا أخفيته فهذا المعروف» [112] .

كما استشهد المبرد بأبيات لذي الرمة و هي[113]:

وَ مِيَّـــــةُ أَحْسَنُ الثِّقَلَيْـــنِ جِيــدًا *** وَ سَـــــالِفَةً وَ أَحْسَنُهُـــــمْ قَدَّالاً

فَلَـــــَمْ أَرَ مِثْلَهَــــا نَظَرــًا وَ عَيْنًا*** وَ لاَ أُمَّ الغَـــــزَالِ وَ لاَ الغَــــزَالَ

تُرِيــــــكَ بَيَــاضَ غُرَّتِهَا وَ وَجْهًا *** كَقَــــــرْنِ الشَّمْسِ أَفْتَــقَ ثُمَّ زَالاَ

أَصَـــــابَ خَصَــاصَةً فَبَدَأَ كَلِيلاً *** كَــــــلاَ وَ أَنْغَلَّ سَـــــائِرُهُ انْغْلاَلاَ

حلّل المبرّد هذه الأبيات فقال:« الجيد العنق و السالفة ناحية و القذلان ناحيتا القفا من الرأس. و قوله أفتق ثم زالا يقال: أفتق السّحاب إذا انكشف انكشافة فكانت فيه فرجة "يسيرة" بين السحابتين تقول العرب دام علينا الغيم، ثم أفتقنا.

[109]– الكامل: 55/2.
[110]– سورة الرحمن: 58.
[111]– سورة الواقعة: 23.
[112]– الكامل: 55/2–76.
[113]– ديوان ذي الرّمّة:372 –373 .و الأبيات جاءت بلفظها و تمامها
تُرِيكَ بَيَاضَ لَبَّتِهَا وَ وَجْهًا *** كَقَرْنِ الشَّمْسِ أَفْتَقَ حِينَ زَالاَ
أَصَابَ خَصَلَصَةً فَنَدَا كَلِيلاً *** كَلاَ وَ أَنْغَلَّ سَائِرُهُ انْـــــغِلاَلاَ
وَ مَيــَّةُ أَحْسَنُ الثَّقَلَيْنِ خَدًّا *** وَ سَالِفَةَ وَ أَحْسَنُنُـــــهُ قــذَالاً
وَ لَمْ أَرَ مِثْلَهَا نَظَرًا وَ عَيْنًا *** وَ لاَ أُمَّ الغَزَالِ وَ لاَ الغَــزَالَ

و إذا نظر إلى الشمس و القمر من فتق السحاب فهو أحسن ما يكون و أشدّه استثارة. و قوله كلا يريد في سرعة ما بدا ثم غاب» [114] .

و من التشبيهات القليلة الاستعمال عند العرب تشبيه المعلوم بالمجهول أو ما سماه البلاغيون بالتشبيه "الوهمي"، و هو ما ليس مدركا بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، و لكنه لو وجد فأدرك، لكان مدركا بها، كقول امرئ القيس[115]:

أَتُـــوعِدُنِي وَ المَشْرَفِــيُّ مُضَاجِعِي*** وَ مَسْنُـــونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فالشياطين* و الغول و أنيابها مما لا يدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة و لكنها لو وجدت فأدركت لكان إدراكها عن طريق حاسة البصر.

و قد ذكر المبرد أمثلة أخرى لهذا النوع من التشبيه منها قول الراجز[116]:

أَبْصَـــرْتُهَا تَلْتَهِـــمُ الثُّعْبَـــانَا *** شَيْطَـــانَةً تَزَوَّجَـــتْ شَيْطَـــانَا

كما وقف المبرّد كسابقيه يدافع على الصورة القرآنية في قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ شَيَاطِينْ﴾.

فقال:« إنّما يمثّل الغائب بالحاضر و رؤوس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها و هؤلاء في هذا القول؟ » [117].

كما قال الله عزّ و جلّ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[118]، و هذه الآية« قد جاء تفسيرها ضربين، أحدهما: أن هناك جرا يقال له الأستن منكر الصورة يقال لثمره: رؤوس الشياطين، و هو الذي ذكره النابغة في

---

[114]– الكامل: 55/2.
[115]– ديوان امرؤ القيس: 142.
*– من عادة العرب أن يشبهوا كل قبيح الصورة بالشيطان لأن له صفة بشعة في توهمهم، و أن يشبهوا حسن الصورة بالملك بفتح اللام لحسن صورته في توهمهم.
[116]– الكامل: 81/2.
[117]– الكامل: 79/2.
[118]– سورة يونس: 39.

قوله: "تحيد من أستن سود أسالفه". و زعم الأصمعيّ أنّ هذا الشجر يسمّى الصوم. و القول الآخر: و هو الذي يسبق إلى القلب أن الله جلّ ذكره شنّع صورة الشياطين في قلوب العباد. و كان ذلك أبلغ من المعاينة ثم مثّل هذه الشجرة بما تنفر منه كلّ نفس »[119].

و بهذا التحليل يبيّن لنا المبرّد سلامة هذا الأسلوب و مكانته في البلاغة. « و لئن لم ينبن الدّفاع على رؤية فنّية متكاملة، فقد تضمّن معطيات ذات بال من أهمها التأكيد، في بناء الصورة و شكل التعبير، على الغرض أي على علاقة المتقبل بالنص، و الحالة التي يروم الكاتب إحداثها فيه فيتحوّل، تبعا لذلك، مركز الاهتمام من البحث عن إمكانية الصورة أو استحالتها إلى النظر في وظيفتها و إيفائها بالغرض.

ثم إنّ الصورة لا تنفصل فاعليتها عن السياق الجملي الذي وردت فيه، لأنه يرغمها و يمهّد لتوظيفها التوظيف اللاّئق بها. فالتشبيه برؤوس الشياطين في القرآن لابد أن يقترن بصورة الشيطان فيه و ما بلغه ذلك التصوير من ترسيخ فكرة القبح و البشاعة »[120].

و يؤكّد المبرّد موقفه فيذكر شواهد على استعمال العرب لكلمة "شيطان: في الشعر متتبعا معانيها. و ينتهي إلى تقرير المعنى لذي ارتضاه و هو أن الشيطان الذي طبع الله صورته الشنيعة في قلوب العباد فأصبحت تعيها وعي العين كأنّما هي كائنة.

و بهذا يخالف المبرّد جماعة من اللّغويين الذين زعموا أن الشيطان قد يكون من الإنس أو الجنّ فقال:« و زعم أهل اللّغة أن كل مبتمرّد من جن أو إنس يقال له

---

[119]– الكامل: 79/2.
[120]– التفكير البلاغي عند العرب: 269.

شيطان. و أن قولهم: تشيْطن. إنّما معناه، تخبّث و تنكّر »[121]. وقد قال الله عزّ و جلّ: ﴿شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَ الجِنِّ﴾[122].

-تشبيه المحدثين:

قسّم المبرّد تشبيه المحدثين بالإضافة إلى التقسيمات السابقة إلى قسمين:

1- من تشبيه المحدثين المستطرف:

مثل له بقول بشّار[123]:

كَــــأَنَّ فُؤَادَهْ كُــــرَةٌ تُنــَزَّى *** حِــــذَارَ البَيْنِ إِنْ نَفَــــعَ الحِذَارُ*

(يُــــرَوِّعُهُ السِّرَارُ بِكُــــلِّ أَمْرٍ *** مَخَــــافَةَ أَنْ يَكُــــونَ بِهِ السِّرَارُ)

شبه الشاعر في البيت الأول فؤاده في اضطرابه و خفقانه بالكرة و هو تشبيه بديع لما فيه من ابتكار التشبيه بالكرة الذي لم يسبق إليه.

و يتوقف المبرّد إزاء مجموعة من التشبيهات تصوّر المصلوب، و هو مشهد مألوف في الشعر العبّاسي. يقول: و قال دعبل بن عليّ في صفة مصلوب[124] في محاربة الزطّ سنة 619م:

---

[121]- الكامل: 81/2.

[122]- سورة الأنعام: 112.

[123]- ديوان بشّار بن برد:224/3.و اللفظ بتمامه:

يُرَوِّعُهُ السِّرَارُ بِكُلِّ أَمْــرٍ *** مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ السِّرَارُ

كَأَنَّ فُؤَادَهُ يَنْزَى حــِدَارًا *** حِدَارَ البَيْنِ لَوْ نَفَعَ الحِدَارُ

يضع بعض الدارسين لأقسام التشبيه عند المبرّد هذا البيت ضمن التشبيه المفرط عند المحدثين. ينظر: علم البيان لعبد العزيز عتيق: 74.

*- كرة: قطعة من جلد تخاط من عدة قطع لتكون مستديرة، ثم تحشى بصوف أو شعر . تنزى: الوثوب.

[124]- ديوان دعبل بن علي الخزاعي- جمعه و حققه محمد يوسف نجم- نشر و توزيع دار الثقافة بيروت- لبنان- ط1- 1409هـ/1989م: 100.

لَمْ أَرَ صَفًّــــــا مِثْلَ صَفِّ الزُطِّ *** تِسْعِيــــنَ مِنْهُــــمْ صُلِبُوا فِي خَطِّ

مِــــنْ كُلِّ عَــالٍ جِذْعُهُ بِالشَطِّ*** كَـــأَنَّهُ فِي جِذْعِــــهِ المُشْتَــــطِّ

أَخُـــــو نُعَاسٍ جَدَّ فِـي التَّمَطِّي*** قَدْ خَــــامَرَ النَّــــوْمَ وَ لَمْ يَغِــطِّ

و قال أعرابي في صفة مصلوب و هو الأخطل[125]:

كَـــأَنَّهُ عَاشِقٌ قَـدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ *** يَوْمَ الفِـرَاقِ إِلَـــى تَوْدِيعِ مُرْتَحَلِ

أَوْ قَـــائِمٌ مِنْ نُعَـاسٍ فِيهِ لُوثَتُهُ *** مُوَاصِــــلٌ لِتَمَطِّيــهِ مِــنَ الكَسَلِ

و قال حبيب بن أوس[126]:

قَـــدْ قُلِّصَتْ شَفَتَاهُ مِنْ حَفِيظَتِهِ *** فَخِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْبِيسِ مُبْتَسِمَـــا

-و يعجب المبرّد بهذه التشبيهات لأنها « تشبيهات مستطرفة، تقوم على الجمع الحاذق للأشياء المتباعدة، و إصابة شبه يجعل بينها مناسبة و اشتراكا، و لا شيء أبعد عن العاشق من المصلوب »[127].

و إعجاب المبرّد بمثل هذه الأبيات أو التشبيهات إعجاب مبرر، لأنّه لم ينظر إلى التشبيه من جانبه النفسي، بل نظر إليه من زاوية منطقية، تعتمد على إمكانية التوافق الذهني في الهيئة المجردة بين المصلوب و بين كل هؤلاء الذين شبّه بهم الشاعر » .

---

[125]– الكامل: 54/2– قال الحسن: الأخطل الذي يعني رجل محدث من أهل البصرة، و يعرف بالأخيطل و يلقب ببرقوقا.

[126]– نفسه: 59/2.

[127]– الصورة الفنية: 218.

2-تشبيه سخيف:

قال الحسن بن هانئ في صفة الخمر[128]:

فَـــــإِذَا مَــا لَبَسْتَهَــــا فَهَبَاءٌ *** تَمْنَعُ اللَّمْسَ مَــا تُبِيحُ العُيُونَـــــا

دَرَسَ الدَّهْــرُ مَــا تَجَسَّمَ مِنْهَا *** وَ تَبَقَّـــى لَبَـــــابُهَا الَمكْنُونَـــــا

فَهِـــيَ بِكْرٌ كَأَنَّهَـــا كُلُّ شَيْءٍ *** يَتَمَنَّـــــى مُخَيَّـــــرٌ أَنْ يَكُونَـــا

فِـــــي كُؤُوسٍ كَـــأَنَّهُنَّ نُجُومٌ *** جَــــــارِيَاتٌ بُرُوجُهَـــــا أَيْدِينَا*

طَـــــالِعَاتٌ مَـــعَ السُّقَاةِ عَلَيْنَا *** فَإِذَا مَـــــا غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فِينَـــــا

رأى المبرّد أن هذه القطعة « من التشبيه غاية على سخف كلام المحدثين »[129].

و نلاحظ في كلام المبرّد« اعتراضا فقهيا على كلام أبي نواس من اختلاف في الفكر بين الرّجلين فهو لا يقبل قول الشاعر:"كأنّها كل شيء يتمنى مخيّرا أن تكونا".

---

[128]– ديوان أبي نواس: 593 و قد جاءت هذه الأبيات بتمامها و لفظها.

مـــــنْ سُلاَفٍ كَأَنَّهَا كُلَّ شَيْءٍ *** يَتَمَنَّـــــــــى مُخَيَّرٌ أَنْ يَكُونَـــا

أَكَـــــلَ الـــدَّهْرُ مَا تَجَسَّمَ مِنْهَا *** وَ تَبْقَى لُبَـــــابُهَا المَكْنُونَـــا

فَـــــإِذَا مَــــا اجْتَلَيْتَهَـــــا، فَهَبَاءٌ *** يَمْنَعُ الكَفَّ مَا يُبِيحُ العُيُونَا

فِـــــي كُؤُوسٍ كَـــــأَنَّهُنَّ نُجُومٌ *** جَــــــارِيَاتٌ، بُرُوجُهَا أَيْدِينَا

طَـــــالِعَاتٍ مَــــعَ الثُّقَاةِ عَلَيْنَا *** فَإِذَا مَـــــا غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فِينَا

« فهذا تشبيه مفرط يصفه المبرد بأنه غاية على سخف كلام العرب ».ينظر: علم البيان لعبد العزيز عتيق: 75.

*– يشبه كؤوس الخمرة بالنجوم الجارية بين أيدي الندامة.

[129]– الكامل: 51/2.

و رؤية المبرّد تنطلق من هذا الفكر السلفي المؤمن بثوابت لا تتغير، و الموقن يتفوق السلف و تخلف الخلف، و إنكار كل جديد مبتدع و النظر إليه نظر الشك و الريبة »[130].

لقد أطلق المبرّد على التشبيهات التي أوردها كثيرا من المسميات المختلفة التي تدل على حسنها و ملاحتها، و لكنه في النهاية أرجعها إلى أربعة، فيقول: « و العرب تشبّه على أربعة أضرب فتشبيه مفرط و تشبيه مصيب، و تشبيه مقارب و تشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير و لا يقوم بنفسه. و هو أخشن الكلام »[131].

و لقد تعامل المبرّد مع أقسام التشبيه من زاويتين[132]:

أ-زاوية النعوت و الأحكام الموظفة لإبراز المفعول الجمالي، و حظّه من الحسن و فضل تشبيه على آخر في ذلك، و في الكامل من هذه الأشياء الكثير. فمن التشبيهات العجيب، و المصيب، و الحسن و الحسن جدّا، و الجيّد، و الحلو، و المليح، و المفرط، و القاصد، و الطريف، و الغريب، و المطرد، و السخيف، و الجامع، و المختصر...

و يبدو أن المبرد كان مولعا بالإكثار من الأسماء التي يطلقها على التشبيه و أنواعه، و لكنه لم يكن دقيقا في إطلاق هذه المسميات المختلفة، إذ أننا لا نلاحظ فروقا جوهرية بين كثير من هذه الألوان، مما يجعلنا نظن أنه لم يكن يقصد من وراء هذا الإفراط في التسمية إلا التنويع في الأسماء، دون أن يتعدى ذلك جوهر المسميات، حيث لا اختلاف بينها.

ب-الزاوية الثانية أدقّ من الأولى، و أكثر صرامة، لأنّها تركّز التقسيم على أساس ثابت، و نظرية مسبقة عن علاقة الفن بمضوعه، و الصورة بمثالها. فالتشبيه يقع

---

[130]- تاريخ النقد الأدبي و البلاغة: 377.
[131]- الكامل: 101/2.
[132]- ينظر: التفكير البلاغي عند العرب: 365.

من القصد الذي عقد من أجله في أربعة محال، فأمّا أن يصيبه فيسمّى "مصيبا" و أمّا أن يقع قريبا منه و يسمى "مقاربا" و أمّا أن يبتعد و يسمى "بعيدا" و أمّا يتجاوز الحدّ فيسمى "مفرطا".

و لئن لم يبتدع المبرّد هذه الأقسام ابتداعا، فهو أول من جمعها في حيّز واحد و خصّ كل قسم بشواهد شعرية تعين على بلورة المعنى المراد في المصطلح المستعمل.

و يمكن أن نجزم بأن أقسام التشبيه و نعوته، عند المبرّد، هي أوفى ما وصلنا عن البلاغة العربية. و لذلك سيتبنّى البلاغيون آراءه و لن يطوّرها إلا من جهة الفروع بالمبالغة في التقسيم أو توليدها و إضافة الشواهد من المنظوم و المنثور و لن يقفوا بها عند حدود التشبيه، بل سوف يستعملونها في معالجة كلّ الصور المتولدة عنه و لاسيما الاستعارة، مع أنّهم سيخرجون الإفراط عن حدود التشبيه الضيّقة و يصيغون منه قضية عامة من قضايا التعبير الأدبي.

الفصل الثالث

أثر المبرد في المتأخرين

الفصل الثالث: أثر المبرد في المتأخرين

تمهيد

أولا:ابن المعتز

ثانيا: قدامة بن جعفر

ثالثا: عبد القاهر الجرجاني

رابعا: الخطيب القزويني

خامسا: أثره في مختلف مواضيع البلاغة و اللغة

1-التعقيد المعنوي

2-التعقيد اللفظي

3-التجريد

4-اللف و النشر

5-أثره في فقه اللغة

تمهيد:

ليس هناك علم من العلوم النظرية أو التجريبية برز إلى الحياة مكتمل الأصول و الظواهر و إنما الذي ثبت على مرّ التاريخ أن أي فرع من فروع المعرفة ينشأ نشأة، يبدأ بلبنة أو لبنات قليلة، ثم تتكاثر هذه اللبنات، و تتطور بجهود المشتغلين بذلك العلم و الدارسين له، و ما يلبث أن ينضج و يزدهر.

و هكذا كانت مساهمة المبرد في مجملها لبنة أساسية استفاد منها المتأخرون و أعانتهم على بناء علم قائم بذاته خاصة حين درس التشبيه و قسمه و عند إجابته عن سؤال الكندي إذ فتح بإجابته تلك بابا واسعا أمام النحاة و البلاغيين بعده فاستفاضوا في الدرس إلى أن توصلوا إلى وضع نظرية أضرب الخبر.

و أبرز هؤلاء المتأخرين الذين أخذوا عن المبرد ابن المعتز و قدامة و عبد القاهر و الخطيب القزويني.

أولا: ابن المعتز (ت 296هـ)

تتلمذ عبد الله ابن المعتز على يد المبرد في الأدب و العربية[1] « و كان المبرّد يجيئه كثيرا و يقيم عنده إذا خرج من عند القاضي اسماعيل بن إسحاق لقرب داره من دار ابن المعتز، و كان للمبرد مجلس في مسجده، و كانت بينهما مناقشات كثيرة في الأدب و الشعر و النقد ».[2]

كما تتلمذ أيضا على يد أبو العباس ثعلب (ت 291هـ)، و هو إمام الكوفيين في النحو و اللغة[3].

---

[1]- ينظر: تاريخ بغداد: 10 / 195 .

[2]- ابن المعتز و تراثه في الأدب و النقد و البيان- محمد عبد المنعم خفاجي- دار الجيل- بيروت- ط2- 1411هـ- 1991م : 76-77

[3]- ينظر: تاريخ بغداد : 195/10 .

و رغم أن ابن المعتز « قد تأثر في كتابه "البديع" بأستاذه ثعلب و بكتابه "قواعد الشعر" و سار على نهجه في العرض و ذكر الأمثلة لبعض الألوان البديعية و دراستها: كالتشبيه و الاستعارة و الإفراط و لطافة المعنى و حسن الخروج... »[4] إلا أنني لاحظت عند تصفحي لباب التشبيه في كتابه "البديع" أنه استخدم المصطلحات نفسها التي استعملها المبرد في الكامل من ذلك قوله: "و من التشبيه الحسن"[5] و "و من أحسن التشبيهات"[6] أو "و من التشبيهات العجيبة".[7]

قد تكون هذه المصطلحات منتشرة في ذلك العهد و لم يكن للمبرد السبق في ذكرها و لا لابن المعتز أخذها عنه، لكنني أحببت أن أنوّه بهذه الملاحظة.

ثانيا: قدامة بن جعفر (ت 337هـ)

لقد أفاد قدامة بن جعفر في حديثه عن معنى التشبيه مما سبق أن قاله المبرد و ما قاله ابن طباطبا (ت 320)، مع احتفاظه بشخصيته و استقلال تفكيره في اختيار الصيغة الملائمة من وجهة نظره، و اختيار الشواهد الشعرية، و الحديث عن كيفية تصرف الشعراء في التشبيه و ما إلى ذلك، و لعلنا نتبين وجه إفادته من المبرد و ابن طباطبا إذا اقتبسنا تصور كل منهما للتشبيه ثم أعقبناهما بما قاله هو:

يقول المبرد: « و اعلم أن للتشبيه حدا، لأن الأشياء تشابه من وجوه، و تباين من وجوه، فإنما ينظر إلى التشبيه من أين وقع، فإذا شبه الوجه بالشمس و القمر فإنما يراد به الضياء و الرونق، و لا يراد به العظم و الإحراق ».[8]

---

[4]- ابن المعتز و تراثه في الأدب و النقد و البيان: 590.

[5]- البديع: تصنيف عبد الله بن المعتز المتوفى سنة 296هـ- اعتنى بنشره و تعليق المقدمة و الفهارس اغناطيوس كراتشقوفسكي- دار المسيرة- ط2- 1399هـ-1979م.أعادت طبعه بالأوقست مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم محمد الرجب.

[6]- نفسه: 68.

[7]- نفسه: 69.

[8]- الكامل: 54/2.

و يقول ابن طباطبا: « و التشبيهات على ضروب مختلفة، فمنها تشبيه الشيء بالشيء صورة و هيئة، و منها تشبيه به معنى، و منها تشبيه به حركة و بطئا و سرعة، و منها تشبيهه به لونا و منها تشبيهه به صوتا. و ربما امتزجت هذه المعاني بعضها ببعض، فإذا اتفق في الشيء المشبه معنيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف قوى التشبيه و تأكد الصدق فيه، و حسن الشعر به، للشواهد الكثيرة المؤيدة له ».[9]

أما قدامة فيقول: « إنه من الأمور المعلومة أن الشيء لا يشبه بنفسه و لا بغيره كل الجهات إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه، و لم يقع بينهما تغاير ألبته اتحدا، فصار الاثنان واحدا، فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما و يوصفان بها، و افتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها. و إذا كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيهما، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد ».[10]

إن نص قدامة يتضمن فكرتين أولهما أن الأمرين اللذين يعقد التشبيه بينهما لابد أن يكون بينهما اتفاق في بعض الوجوه أو الصفات، و اختلاف في أخرى و هذه الفكرة تضمنها كلام المبرد، و الفكرة الثانية أنه كلما كثرت مواضع الاشتراك بين طرفي التشبيه زاد ذلك في حسنه، و هذه الفكرة تبدو صريحة في عبارة ابن طباطبا. و لا ينال كل ذلك بالطبع من جهد قدامة الكبير في بلورة كثير من الصور البلاغية .[11]

---

[9]- عيار الشعر محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (المتوفي سنة 322هـ)- دراسة و تحقيق و تعليق: محمد زغلول سلام- منشأة المعارف بالإسكندرية- ط3- دت : 23.

[10]- نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر- تحقيق و تعليق محمد عبد المنعم خفاجي- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1- دت: 109.

[11]-ينظر: البحث البلاغي عند العرب تأصيل و تقييم لشفيع السيد- دار الفكر العربي- ط2- 1416هـ-1996م: 93.

كما نلحظ تأثر قدامة بالمبرد عندما تحدث عن التشبيه في كتابه نقد النثر، إذ عقد له بابا فيه و عرفه تعريفا يعيد إلى الأذهان ما سبق قوله في كتاب الكامل للمبرد حيث قال: « و أما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب و فيه تكون الفطنة و البراعة عندهم، و كلما كان المشبه منهم في تشبيهه ألطف، كان بالشعر أعرف، و كلما كان بالمعنى أسبق، كان بالحذق أليق ».[12]

و قسمه إلى قسمين: تشبيه ظاهري و تشبيه معنوي: فقال: « و التشبيه ينقسم قسمين: تشبيه للأشياء في ظواهرها و ألوانها و أقدارها كما شبهوا اللون بالخمر، و القد بالغصن و كما شبه الله النساء في رقة ألوانهن بالياقوت، و في نقاء أبشارهن بالبيض ».[13] و استشهد بقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾، و بقول الشاعر:[14]

كـــــأَنَّ بَيْضَ نَعَـــامٍ فِي مَلاَحِفِهَا *** إِذَا اجْتَلاَهُنَّ قَيْـــــظٌ لَيْلُهُ وَمِـــدُ

و قول آخر:

أَيـــــَا شِبْهَ لَيْلَى لاَ تُرَاعِـــي فَإِنَّنِي *** لَكَ اليَوْمَ مِنْ بَيْنِ الوُحُوشِ صَدِيقُ

فَعَيْنَاكِ عَيْنـــــَاهَا وَ جِيدُكِ جِيدُهَا *** خَلاَ أَنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْكِ دَقِيـــقُ

و قول آخر:

وَرَدْتُ اعتِسَـــــافًا وَ الثُّرَيَّا كَأَنَّهَا *** عَلَـــى قِمَّةِ الرَّأْسِ ابْنَ مَاءٍ مُحَلِّقِ

---

[12]– نقد النثر لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي– دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان– ط1– 1402هـ– 1982م: 58.

[13]– نفسه: 58.

[14]– نفسه: 58.

و هذا التفسير للتشبيه الظاهري قريب من قول المبرد، و شاهده الأول هو نفس شاهد المبرد.

أما القسم الثاني منه فهو تشبيه في المعاني، كتشبيه الشجاع بالأسد، و الجواد بالبحر، الحسن الوجه بالبدر، و كما شبّه الله أعمال الكافرين في تلاشيها مع ظنهم أنها حاصلة لهم بالسراب الذي إذا دخله الظمآن الذي قد وعد نفسه به لم يجده شيئا. و كما شبه من لا ينتفع بالموعظة بالأصم الذي لا يسمع ما يخاطب به. و شبه من ظل عن طريق الهدى بالأعمى الذي لا يبصر ما بين يديه[15] و أدرج قدامة بن جعفر ضمن هذا النوع من التشبيه بيتا للنابغة الذبياني كان المبرد قد وضعه ضمن التشبيه العجيب و هو قوله:[16]

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي *** وَ إِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

و قول الآخر:

هُـــوَ البَحْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أَتَيْتَهُ *** فَلُجَّتُهُ المَعْرُوفُ وَ الجُودُ سَــاحِلُهُ

و يختم الباب بقوله: « و هذا كثير في القول و في القرآن و الشعر، و ما ذكرنا منه دليل على ما تركنا إن شاء الله ».[17]

إن هذا النوع من التشبيه المعنوي ليس جديدا على النقد القرآني وإنما وجد قبل قدامة في الدارسات القرآنية السابقة، فقد تنبه السابقون إلى وجه الشبه و المشبه به المعنوي في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾[18] إلى آخر الآية.

---

[15]- نقد النثر: 59.
[16]- نفسه: 59.
[17]- نفسه: 59.
[18]- سورة الجمعة: 62

و في قوله تعالى: ﴿إنهاشَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[19] و غيرها ، و التشبيه في أمثلة قدامة السابقة يجري على تشبيه شيء معنوي بآخر حسي و هما من بحوث البلاغيين في التشبيه، إذ قسموه إلى أقسام.

ثالثا: عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ)

لقد تأثر الإمام الشيخ عبد القاهر الجرجاني « مؤسس علمي البلاغة و مقيم ركنيها "المعاني و البيان" »[20] بما ورد عن المبرد من ملاحظات و أفكار و سار على نهجها حتى تمكن من فتح الأبواب أمام البلاغيين لينجزوا فصلا تحدثوا فيه عن ضروب الإسناد الخبري.

و أهم تلك الملاحظات التي صدرت عن المبرد و التي تنبه لها عبد القاهر الجرجاني تلك التي وردت عند إجابته عن سؤال الكندي[21]، حيث روى الأنباري أنه قال: « ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس و قال له: إنني لأجد في كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة و المعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم: إخبار عن قيامه، و قولهم: إن عبد الله قائم: جواب عن سؤال سائل، و قولهم: إن عبد الله لقائم: جواب عن إنكار منكر قيامه، فقلت تكررت الألفاظ لتكرر المعاني. قال فما أحار المتفلسف جوابا ».[22]

---

[19]– سورة الصافات :64-65 .

[20]– دلائل الإعجاز: 6.

[21]– هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، ولد عام 189هـ/803م في الكوفة و توفي عام 260هـ/873م .ينظر الأعلام:235/5 .

[22]– دلائل الإعجاز: 209.

تمعن عبد القاهر في الإجابة و تبنى فكرة المبرد التي تقول: المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ « و غاص في أحشائها، و استترف كل النتائج التي تسمح باستخلاصها، و انتهى في دراسته لعلاقة اللفظ بالمعنى ».[23]

إن قضية العلاقة بين اللفظ و المعنى شغلت بال العلماء السابقين و قد أولوها العناية التامة و درسوا اللفظ مستقلا عن المعنى، و يعضهم انحاز إلى جهة اللفظ، و أقام حججا و أدلة، و بعضهم رأى تعانق اللفظ و المعنى، لكن عبد القاهر الجرجاني « ناقش المسألة و أعاد النظر فثار ضد الذين فصلوا بين اللفظ و المعنى و ضد المنحازين إلى جهة اللفظ ».[24]

و وضع عبد القاهر ما قاله المبرد في باب اللفظ و النظم و بين الفروق الدقيقة التي خفيت على الفيلسوف الكندي، و فطن إليها المبرد النحوي .[25]

و شبه هذه العلاقة بالعلاقة بين الوعاء و الموعى [26] فقال: « حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق، فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم و الترتيب و أن يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه البلغاء فكرا في النظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها، فباطل من الظن و وهم يتخيل إلى من لا يوفي النظر حقه ».[27]

و عبد القادر عندما بسط آراءه و تصوراته و أفكاره لم يمل من الاحتجاج على طريقة الجد ليبين، و البرهان على أن النظم واقع في المعاني و أن الألفاظ توابع

[23]– التفكير البلاغي: 359.
[24]– نظرية النظم– صالح بلعيد– دار هومة– الجزائر– ط1– 2002: 138.
[25]– ينظر أثر النحاة في البحث البلاغي:212.
[26]–ينظر: النص الشعري و مشكلات التفسير– عاطف جودة نصر– مكتبة لبنان– ط1– 1996: 82.
[27]– دلائل الإعجاز: 53.

لها في مواقعها، و قد استند في برهانه و حجاجه إلى تصورين « يؤول أولهما إلى الفروق الفردية و يؤول ثانيهما إلى الفكرة و التأمل، فالفروق الفردية في إدراك النظم و الوقوف عليه، و الحاجة في إدراكه إلى قدح الفكر و إعمال التأمل و التروي، تدل من قريب على أن النظم إنما يقع في المعاني بديا ».[28]

و إلى هذين التصورين أشار الجرجاني في قوله: « ... لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه، دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسا واحدا و لا يعرف أحدهما في ذلك شيئا يجهله الآخر.

و أوضح من هذا كله و هو أن النظام الذي يتواصفه البلغاء و تتفاصل مراتب البلاغة من اجله صنعه يستعاذ عليها بالفكر لا محالة ».[29]

لقد انتهى فكر الجرجاني من خلال النظم إلى تصور أن العبرة ليست بالألفاظ من جهة التوالي نطقا أو رسما، و إنما العبرة بما تنطوي عليه الألفاظ من دلالات، لا يظهر لنا بضرب من تفكيك الألفاظ و عزل بعضها عن بعض، و إنما يتجلى في علاقات التركيب اللغوي داخل سياق من التفاعل.

يبين ذلك قوله: « كقولهم "لفظ متمكن" يريدون أنه بموافقة معناه لمعنى ما يليه كالشيء الحاصل في مكان صالح يطمئن فيه و "لفظ قلق ناب" يريدون أنه من أجل أن معناه غير موافق لما يليه كالحاصل في مكان لا يصلح له فهو لا يستطيع الطمأنينة فيه، إلى سائر ما يجيء فيه في صفة مما يعلم أنه مستعار له من معناه، و أنهم نحلوه إياه بسبب مضمونه و مؤداه ».[30]

---

[28]– النص الشعري و مشكلات التفسير: 82.
[29]– دلائل الإعجاز: 52.
[30]– نفسه: 59.

يمثل عبد القاهر نقطة الذروة في الحديث عن نظرية النظم العربية، فلم تأت آراؤه حول النظم من العدم، بل كانت تتويجا لاجتهادات البلاغيين و النحاة من قبله، بعضهم دخل في دائرة مفهوم النظم، دون أن يذكر المصطلح و بعضهم الآخر ناقش المفهوم و استخدم المصطلح .[31]

و حلل عبد القاهر قول المبرد: « فقولهم: عبد الله قائم: إخبار عن قيامه، و قولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل، و قولهم: إن عبد الله لقائم: جواب عن إنكار منكر قيامه، فقلت تكررت الألفاظ لتكرر المعاني » في كتابه دلائل الإعجاز ضمن فصل سماه: إنّ و مواقعها، بدأه بقوله: « و إذا كان الكندي يذهب هذا عليه حتى يركب فيه ركوب مستفهم أو معترض فما ظنك بالعامة و من هو في عداد العامة و من لا يخطر شبه هذا بباله ».[32]

و نجد عبد القاهر الجرجان تارة يلقي اللوم على الكندي لأنه لم يتفهم الفرق بين الجمل فيقول: « و اعلم أن ههنا دقائق لوان الكندي استقرى و تصفح و تتبع مواقع "إنّ" ثم ألطف النظر و أكثر التدبر لعلم علم ضرورة أن ليس سواء دخولها و أن لا تدخل... و أدل على أن ليس سواء دخولها و أن لا تدخل من أنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها و تأتلف معه و تتحد به حتى كأن الكلامين قد أفراغا إفراغا واحدا و كأن أحدهما قد سبك في الآخر؟ هذه هي الصورة حتى إذا جئت إلى "إنّ" فأسقطتها رأيت الثاني منهما قد نبا عن الأول و تجافى معناه عن معناه و رأيته لا يتصل به و لا يكون منه ».[33]

---

[31]–ينظر المرايا المفعرة– "نحو نظرية نقدية عربية"– عبد العزيز حمودة– الكويت سلسلة عالم المعرفة– إصدار المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب أغسطس– 2001م: 222.

[32]– دلائل الإعجاز: 209.

[33]– نفسه: 209.

و تارة أخرى يعطى للكندي عذرا فيقول: « و إذا كان خلف الأحمر* و هو القدوة و من يؤخذ عنه و من هو بحيث يقول الشعر فينحله الفحول الجاهليين فيخفي ذلك له يجوز أن يشتبه ما نحن فيه عليه حتى يقع له أن ينتقد على بشار فلا غزو أن تدخل الشبهة في ذلك على الكندي ».[34]

ينتقل عبد القاهر بعد ذلك لتوضيح قول أبي العباس فيقول: « فأما الذي ذكر عن أبي العباس من جعله لها جواب سائل إذا كانت وحدها و جواب منكر إذا كان معها اللام فالذي يدل على أن لها أصلا في الجواب أنا رأيناهم قد ألزموها الجملة من المبتدأ و الخبر إذا كانت جوابا للقسم نحو "و الله إن زيدا منطلق" و امتنعوا من أن يقولوا: و الله زيد منطلق: ثم إنّا إذا استقرينا الكلام وجدنا الأمر بينا في الكثير من مواقعها أنه يقصد بها إلى الجواب كقوله تعالى: ﴿وَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾[35] »[36].

و يعود عبد القاهر إلى الأصل في ذكر "إنّ" في الكلام فيقول: «ثم إن الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه البناء هو الذي دون في الكتب من أنها للتأكيد و إذا كان قد ثبت ذلك فإذا كان الخبر بأمر ليس للمخاطب ظن في خلافه ألبته و لا يكون قد عقد في نفسه أن الذي تزعم أنه كائن غير كائن و أن الذي تزعم أنه لم يكن كائن فأنت لا تحتاج هناك إلى "إنّ" »[37].

و بين حاجة الكلام إلى "إنّ" إذا كان المتلقي يظن خلاف ما تقول، ثم ذكر عبد القاهر وجه الحسن في استعمال "إنّ" فقال: « و لذلك تراها تزداد حسنا إذا

---

* - خلف الأحمر: هو خلف بن حيان، أبو محرس المعروف الأحمر، راوية، عالم بالأدب شاعر من أهل البصرة توفي: 180هـ/796م.ينظر: الأعلام: 310/2

[34]- دلائل الإعجاز: 211-212.

[35]- سورة الكهف: 83-84.

[36]- دلائل الإعجاز: 214.

[37]- نفسه: 215.

كان الخبر بأمر يبعد مثله في الظن و بشيء قد جرت عادة الناس بخلافه كقول أبي نواس*:

عَلَيْـــــكَ بِاليَأْسِ مِـــــنَ النَّـــاسِ *** إِنَّ غِنَـــــى نَفْسِكَ فِي اليَاسِ

فقد ترى حسن موقعها، و كيف قبول النفس لها، و ليس ذلك إلا لأن الغالب على الناس أنهم لا يحملون أنفسهم على اليأس و لا يدعون الرجاء و الطمع و لا يعترف كل أحد و لا يسلم أن الغنى في اليأس، فلما كان كذلك كان الموضع موضع فقر إلى التأكيد فلذلك كان من حسنها ما ترى ».[38]

و من لطيف مواقع "إنّ" عنده أن يدعى على المخاطب ظن لم يظنه و لكن يراد التهكم به و أن يقال إن حالك و الذي صنعت يقتضي أن تكون قد ظننت ذلك و مثال ذلك قول الأول:

جَـــــاءَ شَقِيقُ عَارِضًا رُمْحَـــــهُ *** إِنَّ بَنـــــِي عَمِّكَ فِيهِمْ رِمــَاحُ

يقول: « إن مجيئه هكذا مدلاّ بنفسه و بشجاعته قد وضع رمحه عرضا ليل على إعجاب شديد و على اعتقاد منه أنه لا يقوم له أحد حتى كأن ليس مع أحد هنا رمح يدفعه به و كأنا كلنا عزل ».[39]

أما إذا كانت "إنّ" جواب سائل فيشترط عبد القاهر أن يكون للسائل ظن في المسؤول عنه على خلاف ما أنت تجيبه به فأما أن يجعل مجرد الجواب أصلا فيه فلا، لأنه يؤدي أن لا يستقيم لنا إذا قال الرجل: « كيف زيد؟ أن تقول: صالح و إذا

---

*– ديوان أبي نواس: 319 و البيت بتمامه و لفظه
عَلَيْكَ بِاليَأْسِ مِنَ النَّاسِ *** إِنَّ الغِنَى، وَيْحَكَ، فِي اليَاسِ.
[38]– دلائل الإعجاز: 215.
[39]– نفسه: 216.

قال: أين هو؟ أن تقول: في الدار، و أن لا يصح حتى تقول: إنه صالح و إنه في الدار، و ذلك ما لا يقوله أحد ».[40]

و إذا جمع بينهما و بين اللام نحو: إن عبد الله لقائم للكلام مع المنكر فجيد لأنه إذا كان الكلام مع المنكر كانت الحاجة إلى التأكيد أشد و ذلك أحوج ما تكون إلى الزيادة في تثبيت خبرك إذا كان هناك من يدفعه و ينكر صحته إلا أنه ينبغي أن يعلم أنه كما يكون للإنكار قد كان من السامع فإنه يكون للإنكار يعلم أو يرى أنه يكون من السامعين. و جملة الأمر أنك لا تقول: إنه لكذلك: حتى تريد أن تضع كلامك وضع من يزع فيه عن الإنكار.[41]

و يضيف عبد القاهر الجرجاني دلالة أخرى لدخول "إنّ" على الجملة فقال: « و اعلم أنها قد تدخل للدلالة على أن الظن قد كان منك أيها المتكلم في الذي كان أنه لا يكون و ذلك قولك للشيء هو بمرأى من المخاطب و مسمع: إنه كان من الأمر ما ترى و كان مني إلى فلان إحسان و معروف ثم إنه جعل جزائي ما رأيت، فتجعلك كأنك ترد على نفسك ظنك الذي ظننت، و تبين الخطأ الذي توهمت و على ذلك و الله أعلم قوله تعالى حكاية عن أم مريم رضي الله عنها ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[42] ».[43]

و هكذا فإن الإخبار ككل فعل لغوي لا تعود فائدة حكمة على منتجه، إذ اللغة من صنف البضاعة التي لابد أن يكون مستهلكها غير صانعها-إلا في بعض الحالات المرضية- لذلك يستوجب من جهة ما هو حكم طرفا آخر يتقبل الخبر

40- نفسه : 216.
41- ينظر: دلائل الإعجاز: 216.
42- سورة آل عمران: 36-37.
43- دلائل الإعجاز: 216.

و يؤثر فيه في نفس الوقت و لوجود طرفين في القضية يتظافر و ر الفعل على توليد الخبر و إنشائه، بحسب المنبه أو عدم توفره.[44]

إن عبد القاهر الجرجاني هو الذي فتح الباب أمام البلاغيين حيث توصلوا من خلاله إلى تأليف فصل تحدثوا فيه عن ضروب الإسناد الخبري إذ يذهبون إلى أن العبارة الأولى في كلام الكندي لخالي الذهن و الغرض منها إفادة الحكم، أما الثانية فللسائل و الغرض منها تأكيد الحكم، و أما الثالثة فللمنكر و الغرض منها المبالغة في التأكيد.

و ذهب عبد القاهر إلى أن خالي الذهن و الشاك المتردد لا يؤكد لهما الكلام، إذ قال أنه يحسن التأكيد إذا كان المخاطب له ظن في خلاف الحكم المؤكد و عقد قلبه على النفي، على أنه فتح الباب لتأكيد الكلام في الصورة الأولى لأسباب بيانية، و هو ما سماه البلاغيون بعده بالخروج على مقتضى الظاهر.

و يظهر تأثر عبد القاهر الجرجاني بالمبرد أيضا عند حديثة عن التشبيه حيث تناول بعض الأبيات التي ذكرها المبرد، من هذه الأبيات بيت امرئ القيس المشهور:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَ يَابِسًا *** لَدَى وَكْرِهاَ العُنَّابُ وَ الحَشَفُ البَالِي

كان موقف عبد القاهر من البيت في جوهره موقف المبرد، لكن عبد القاهر يتميز بالقدرة على رد إعجابه إلى علل و أسباب لم تكن ثقافة المبرد تتيحها.

فهو يشارك المبرد الإعجاب به لكنه لا يسرف في تقديره لأن عبد القاهر لم يكن « يخلع قيمة كبيرة على الأبيات التي تتوالى فيها التشبيهات و تجتمع معا دون أن يتشكل منها بناء مركب »[45]، دليل ذلك قوله: « ... لم يقصد إلى أن يجعل بين

44- ينظر: التفكير البلاغي عند العرب: 260.
45- التفكير البلاغي عند العرب :218.

الشيئين اتصالا وإنما اجتماعا في مكان فقط. كيف و لا يكون لمضامة الرطب من القلوب إلى اليابس هيئة يقصد ذكرها، أو يعنى بأمرها، كما يكون ذلك لتباشير الصبح في أثناء الظلماء، و كون الشقيقة على قامتها الخضراء، فيؤدي ذلك الشبه الحاصل من مداخلة أحد المذكورين الآخر و اتصاله به اجتماع الحشف البالي و العناب كيف و لا فائدة لأن ترى العناب مع الحشف أكثر من كونهما في مكان واحد أو أن اليابسة من القلوب كانت مجموعة من ناحية و الرطبة كذلك في ناحية أخرى لكان التشبيه بحاله. و ذلك لو فرقت التشبيه ههنا فقلت كأن الرطب من القلوب عناب و كأن اليابس حشف بال لم تر أحد التشبيهين موقوفا في الفائدة على الآخر ».[46]

أما الفضيلة التي يجدها عد القاهر في بيت امرئ القيس فيوجزها في قوله: « و إذ قد عرفت هذه التفاصيل فاعلم أن ما كان من التركيب في الصورة بيت امرئ القيس فإنما يستحق الفضيلة من حيث اختصار اللفظ و حسن الترتيب فيه لا لأن للجمع فائدة في عين التشبيه ».[47]

و لقد حاول بشار بن برد تقليد بيت امرئ القيس بقول بيت يشبهه فقال: « ما قرّ بي قرار مذ سمعت قول امرئ القيس حتى صنعت[48]:

كَـــــأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا *** وَ أَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ ».[49]

[46]– أسرار البلاغة في علم البيان: الإمام عبد القاهر الجرجاني– صححها على نسخة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده التي قرأها دروسا في الجامع الأزهر– و أودع فيها جل تعليقاته على حواشيها و علق حواشيها محمد رشيد رضا– دار المعرفة بيروت– لبنان– ط2– د.ت:168.

[47]– أسرار البلاغة: 168–169.

[48]– ديوان بشار : 114/1.

[49]– العمدة: 490/1.

وفضل عبد القاهر الجرجاني بيت بشار لأنه يقوم على صورة مركبة، تتجانس عناصرها و تتركب و تأتلف ائتلاف الشكلين يسيران إلى شكل ثالث إذ يقول فيه: « نجد لبيت بشار من الفضل و من كرم الموقع و لطف التأثير في النفس ما لا يقل مقداره، و لا يمكن إنكاره، و ذلك لأنه راعى ما لم يراعه غيره و هو أن جعل الكواكب تهاوى فأتم الشبه، و عبر عن هيئة السيوف و قد سلت من الأغماد و هي تعلو و ترسب، و تجيء و تذهب ».[50]

أعجب عبد القاهر بهذا البيت إعجابا شديدا لأنه أظهر هيئة السيوف في حركتها عند احتدام الحرب و اختلاف الأيدي بها في الضرب و اضطرابها و لأن الشاعر نظم هذه الدقائق كلها في نفسه ثم أحضرك صورها بلفظة واحدة و نبه علها بأحسن التنبيه و أكمله بكلمة و هي قوله (تهاوى) لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها، و كان لها في تهاويها تواقع و تداخل ثم إنها بالتهاوي تستطيل أشكالها، فأما إذا لم تزل عن أماكنها فهي على صورة الاستدارة .[51]

إن هذا الفهم للتشبيه يكشف عن نظرة أنضج من فهم المبرد. و لا شك أنها نابعة من مفهوم النظم عند عبد القاهر، و متصلة بتفرقته المحددة بين وقوع التشبيه في الصفة نفسها، و بين وقوعه في حكم لهاو مقتضى، و هذان جانبان لم يكن المبرد يعيهما جيدا. و مع ذلك فإن فهم عبد القاهر للتشبه « يقوم أساس على فكرة الإصابة الأساسية عند المبرد، إذ بدون الإصابة لا يمكن أن يصح التشبيه، لا في الصفة –باعتبارها الأسبق في التصور– و لا في حكمها أو مقتضاها ».[52]

كما وقف عبد القاهر الجرجاني أمام تشبيهات المصلوب التي ذكرها المبرد و هي قول الشاعر:

---

[50]– أسرار البلاغة: 151.

[51]– ينظر: أسرار البلاغة: 151.

[52]– الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي: 219.

كَـــــأَنَّهُ عَاشِقٌ قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ *** يَوْمَ الوَدَاعِ إِلَــى تَوْدِيعِ مُرْتَحِلِ

أَوْ قَائِـــــمَ مِنْ نُعَاسٍ فِيهِ لُوثَتُهُ *** مُوَاصِلٌ لِتَمَطِّيهِ مِـــنَ الكَسَـــلِ

و عدها من لطيف جنس "التشبيه من هيئات الحركة و السكون" لكثرة ما في البيتين من التفصيل و هي فكرة لم ترد على بال المبرد.

و يرى عبد القاهر أن الشاعر لو قال: « كأنه متمط من نعاس و اقتصر عليه كان قريبا من المتناول لأن الشبه إلى هذا القدر يقع في نفس الرائي المصلوب لكونه من حد الجملة، فأما بهذا القيد و على هذا التقييد الذي يفيد به استدامة تلك الهيئة فلا يحضر إلا مع سفر من الخاطر و قوة من التأمل و ذلك لحاجته أن ينظر إلى غير جهة فيقول هو كالمتمطي ثم يقول المتمطي يمد ظهره و يده مدة ثم يعود إلى حالته فيزيد فيه أنه مواصل لذلك، ثم إذا أراد ذلك طلب علته و هي قيام اللوثة و الكسل في القائم من النعاس. و هذا أصل فيما يزيد به التفصيل و هو أن يثبت في الوصف أمر زائد على المعلوم المتعارف ثم يطلب له علة و سبب ».[53]

و معنى هذا أن براعة التشبيه قائمة على نوع من الحصر المنطقي لكل أجزاء المشابهة و لو تساء لنا عن بعد النفسي للتشبيه لما وجدنا شيئا. أن عبد القاهر ينظر إلى التفصيل باعتباره فعلا من أفعال الحصر المنطقي، الذي يقوم على أقصى درجات التجريد، و يعتمد على الجهد الصناعي الخالص أكثر مما يعتمد على الانفعالات و المشاعر الإنسانية.[54]

إن قول عبد القاهر يعد استمرارا طبيعيا لموقف قديم، فمثل هذه الأحكام على التشبيه تقوم على نفس المبادئ التي ينطلق منها المبرد في القرن الثالث... صحيح أن

---

[53]- أسرار البلاغة: 163.

[54]- ينظر: الصورة الفنية: 220.

أحكام عبد القاهر تستند –أكثر من غيرها– إلى ثقافة كلامية و فلسفة أوسع و أعمق، و صحيح أيضا أن عبد القاهر حاول أن يقدم تصورا متكاملا للتشبيه، و لكن نضج تصور عبد القاهر و اكتماله ما كان يجعله يختلف عن سابقيه اختلافا جذريا فيما يتصل بطبيعة النظرة إلى العلاقة الأساسية التي يفترض أن يقوم عليها التشبيه.

و بهذا فإن الفارق بين عبد القاهر و بين سابقيه –في هذا المجال– فارق ثانوي، لأن النظرة التي ينظر الجميع على أساسها إلى التشبيه واحدة في جوهرها، إذ يظل الأساس واحدا و تظل صحة التشبيه و صوابه مرتبطة بتناسبه المنطقي، و مدى دقة المطابقة العقلية و المادية بين أطرافه.

و مجمل القول إن الدارسين القدامى « قد ساروا بالتشبيه شوطا بعيدا، و خطوا في بحثه و استقصاء محاسنه خطوات متقدمة، فتوسعوا فيه، و أضاف اللاحق منهم إلى جهود سابقيه الشيء الكثير، فقد عرفوه؛ و ذكروا أقسامه، و أركانه، و حدوده، و صفاته، و محاسنه و عيوبه، كما أفاضوا في الحديث عن الغرض منه و فائدته في الكلام.

و لعل أكثر من وقف مع التشبيه مطولا هو الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه "أسرار البلاغة" الذي جعله خاصا بمباحث البيان، فقد عرض في إسهاب لصور التشبيه المختلفة، و فرق بين أنواع التشبيهات، و وجوه الشبه فيها، كما فرق بين التشبيه الذي جعله عاما و التمثيل الذي جعله خاصا ».[55]

---

[55]– صور البيان في تفسير الزمخشري: عبد الجليل مصطفاوي– رسالة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في اللغة– 1421هـ/2000م: 43-44.

رابعا: الخطيب القزويني (ت 735هـ)

يعد الخطيب القزويني من البلاغيين الذين استفادوا من تحليل عبد القاهر الجرجاني لجواب المبرد، إذ خصص فصلا في كتابه "الإيضاح في علوم البلاغة" للحديث عن "أحوال الإسناد الخبري"بدأه بالحديث عن فائدة الخبر و لازم فائدة الخبر ثم انتقل إلى أضرب الخبر فقال:« و إذا كان غرض المخبر بخبره إفادة المخاطب أحد الأمرين فينبغي أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة .

فإن كان المخاطب خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر، و التردد فيه، استغنى عن مؤكدات الحكم، كقولك: " جاء زيد، و عمرو ذاهب" فيتمكن في ذهنه لمصادفته إياه حاليا.

و إن كان متصور الطرفين، مترددا في إسناد أحدهما إلى الآخر، طالبا له، حسن تقويته بمؤكد، كقولك: " لزيد عارف" أو " إن زيدا عارف ".

و إن كان حاكما بخلافه وجب توكيده بحسب الإنكار، فتقول: "إني صادق" لمن ينكر صدقك، و لا يبالغ في إنكاره، و "إني لصادق" لمن يبالغ في إنكاره ».[56]

[56]– الإيضاح في علوم البلاغة و المعاني و البيان و البديع: الخطيب القزويني– دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان– ط1– دت: 23.

و يستشهد الخطيب البقزويني بآيات من القرآن ليعزز كلامه و هي قوله تعالى: ﴿وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ، فَكَذَّبُوهُمَا، فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا: إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ، قَالُوا: مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا، وَ مَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ، قَالُوا: رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾[57] حيث قال الله تعالى في المرة الأولى: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ و في الثانية ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾.

و بعد هذا الشرح يؤكد القزويني لنا كلامه بالعودة إلى المبرد و كأنه يثبت لنا أن جواب المبرد هو الأصل الذي أخذ منه هذه المعلومات فيقول « و يؤيد ما ذكرناه جواب أبي العباس للكندي عن قوله: إني أجد في كلام العرب حشوا، يقولون:"عبد الله قائم" و "إن عبد الله قائم" و "إن عبد الله لقائم" و المعنى واحد، بأن قال: بل المعاني مختلفة: فـــ"عبد الله قائم" إخبار عن قيامه، و "إن عبد الله قائم" جواب عن سؤال سائل، و "إن عبد الله لقائم" جواب عن إنكار منكر".[58]

ثم يقدم القزويني مسميات لهذه الأنواع من الخبر و يسمى النوع الأول من الخبر ابتدائيا، و الثاني طلبيا، و الثالث إنكاريا، و إخراج الكلام على هذه الوجوه إخراجا على مقتضى الظاهر .[59]

و يضيف القزويني إخراجا آخر للكلام و هو إخراجه على خلاف الظاهر و يذكر منه ثلاث اعتبارات[60]:

1- ينزل غير السائل منزلة السائل: إذا قام إليه ما يلوح له بحكم الخبر، فيستشرق له استشراق المتردد الطالب، كقوله تعالى: ﴿وَ لاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا،

[57]- سورة يس: الآيات من 13 إلى 16..
[58]- الإيضاح: 24.
[59]- ينظر: الإيضاح: 24.
[60]- الإيضاح: 24-25-26.

إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾[61] و قوله: ﴿وَ أُبَرِّئُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[62] و قول بعض العرب:

فَغَنِّهَا، وَ هِــــــيَ لَكَ الفِـــــدَاءُ **** إِنَّ غِنــــــاءَ الإِبِلِ الحـــدَاءُ

و سلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة و غموض.

2- يترل المنكر مترلة غير المنكر: « إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار، كقوله:

جَـــــاءَ شَقِيقُ عَـــارِضًا رُمْحَـــهُ *** إِنَّ بَنِـــــي عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحُ

فإن مجيئه هكذا، مدلا بشجاعته، قد وضع رمحه عارضا: دليل على إعجاب شديد منه، و اعتقاد أنه لا يقوم من بني عمه أحد، كأهم كلهم عزل ليس مع أحد منهم رمح .

3- يترل المنكر مترلة غير المنكر: إذا كان معه ما إن تأمله ارتدع عن الإنكار، كما يقال لمنكر الإسلام: "الإسلام حق" و عليه قوله تعالى في حق القرآن: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[63] .

و يتفرع على هذين الاعتبارين عند القزويني قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[64]إذ يبين لنا ما وقع في الآية من تأكيد و إنكار فيقول: « أكد إثبات الموت تأكيدين -و إن كان مما لا ينكر- لتتريل المخاطبين مترلة من يبالغ في إنكار الموت، لتماديهم في الغفلة، و الإعراض عن العمل لما بعده، و لهذا قيل "ميتون" دون "تموتون" ...، و أكد إثبات البعث تأكيدا واحدا —و إن

[61]- سورة هود: 37.
[62]- سورة يوسف: 53..
[63]- سورة البقرة: 2.
[64]- سورة المؤمنون: 15-16.

كان مما ينكر- لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديرا بأن لا ينكر. بل إما أن يعترف به، أو يتردد فيه؛ فنزّل المخاطبون منزلة المترددين تنبيها لهم على ظهور أدلته، و حثا على النظر فيها، و لهذا جاء "تبعثون" على الأصل ».[65]

كما خصص القزويني فصلا "للقول في التشبيه" ذلك لأنه يرى أن التشبيه اتفق العقلاء على شرف قدره، و فخامة أمره في فن البلاغة، و أن تعقيب المعاني به يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا كانت أو ذما، أو افتخارا، أو غير ذلك [66] . و لقد تناول فيه بعض الأبيات التي أوردها المبرد في كتابه الكامل منها قول الآخر في صفة مصلوب:

كَـــأَنَّهُ عاَشِقٌ قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ *** يَوْمَ الوَدَاعِ إِلَى تَوْدِيعِ مُرْتَحِـــلِ

أَوْ قَـــائِمٍ مِنْ نُعَاسٍ فِيهِ لُوثَتُهُ *** مُوَاصِلٌ لِتَمَطِّيـــــهِ مِنَ الـــكَسَلِ

و اعتبر البيت الثاني من لطيف* التشبيه المركب في هيئة السكون ذلك لأن التفصيل فيه أنه شبه بالمتمطي إذا واصل تمطيه مع التعرض لسببه و هو اللوثة و الكسل فيه، فنظر إلى هذه الجهات الثلاث، و لو اقتصر على أنه كالمتمطي كان قريبا التناول، لأن هذا القدر يقع في نفس الرائي للمصلوب ابتداء، لأنه من باب الجملة.[67]

و أضاف أبياتا أخرى لهذا النوع من التشبيه شبيهة بالأولى و ذكرها المبرد أيضا و هي قول الآخر:

لَمْ أَرَ صَفَّـــا مِثْلَ صَفِّ الزُطِّ *** يَسْتَعِينُ مِنْهُمْ صُلِبُوا فِـــي خَطِّ

[65]- الإيضاح: 26.
[66]- ينظر: الإيضاح: 218.
*- و لم أجد ما ذكره جابر عصفور في مؤلفه الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي من أن عبد القاهر وصف تلك الأبيات بنفس الصفة التي وصفها المبرد و هي: تشبيه مستطرف.
[67]- ينظر: الإيضاح: 236.

مِنْهُ كُلُّ عـَـالٍ جِذْعُهُ بِالشَّطِّ *** كَأَنَّهُ فــــِي جِذْعِهِ المُشْتــَطِّ

أَخُـــو نُعَاسٍ جَدَّ فِي التَّمَطِّي *** قَدْ خَـــــامَرَ النَّوْمَ وَ لَمْ يَغِطِّ

و قارن بين هذه الأبيات و الأبيات الأولى فقال: « و الفرق بين هذا و الأول صريح في الاستمرار على الهيئة و الاستدامة لها دون بلوغ الصفة غاية ما يمكن أن يكون عليها، و الثاني بالعكس ».[68]

كما درس الخطيب القزويني بيت امرئ القيس المشهور و الذي عده المبرد من التشبيهات المصيبة:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَ يَابِسًا *** لَدَى وَكْرِهاَ العُنَّابُ وَ الحَشَفُ البَالِي

و أدرجه ضمن تشبيه المركب بالمركب لكن اعتبره مخالفتا لهذا النوع « لأن أحد الشيئين فيه الطرفين معطوف على الآخر.

أما في طرف المشبه به، فبين. و أما طرف المشبه فلأن الجمع في المتفق كالعطف في المختلف، فاجتماع شيئين أو أشياء في لفظ تثنية أو جمع، لا يوجب أن أحدهما أو أحدها في حكم التابع للآخر، كما يكون ذلك إذا جرى الثاني صفة للأول، أو حالا منه، أو ما أشبه ذلك. و قد صرح بالعطف فيما أجراه بيانا له من قوله "رطبا و يابسا" ».[69]

خامسا: أثره في مختلف مواضيع البلاغة و اللغة

[68]– الإيضاح: 236.
[69]– الإيضاح: 250.

إضافة إلى ما تم ذكره فإن المبرد قد ترك أثرا في مختلف مواضيع البلاغة التي قعد لها البلاغيون المتأخرون منها:

1-التعقيد المعنوي:

فرق المبرد بين الكلام المعقد الغامض، و الكلام المبسوط الواضح حيث عقد مقارنة بين العباس بن الأحنف و بين قول "روح بن حاتم بن قبيصة" فقال: « قال أحد الشعراء لأهله، و هو العباس بن الأحنف[*]:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ مِنْكُمْ لِتَقْرُبُوا *** وَ تَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

يقول: أغترب فأكسب ما يطول به مقامي معكم، و قربي منكم، فهذا أحسن.

وقيل "لروح بن حاتم بن قبيصة"[*]، و هو واقف على باب المنصور في الشمس، فقال: ليطول وقوفي في الظل، فهذا كلام مكشوف واضح، كانكشاف كلام "الربيع" ».[70]

فالمبرد يشبه الكلام الواضح بكلام الربيع في الحسن و الجمال، و هو أفضل من الكلام الغامض المعقد لأي سبب كان، فالمبرد يرى في بيت عباس بن الأحنف شيئا من الغموض، لأن الوصول إلى المعنى المراد، و هو جعل جمود العين كناية عن المسرة غير واضح تمام الوضوح، لأن الجمود هنا كناية عن البخل بذرف الدموع، و ليس كناية عن المسرة.[71]

---

[*]- ديوان العباس بن الأحنف- دار صادر بيروت- لبنان- ط1- 1398هـ-1978م: 115.

[*]- روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب الأزدي: أمير من الأجواد الممدوحين، و الله الرشيد على القيروان سنة 171هـ فاستمر إلى أن مات فيها سنة 174هـ، 791م. كان موصوفا بالعلم و الشجاعة و الحزم. ينظر: الأعلام: 34/3.

[70]- البلاغة لأبي العباس: 85-86.

[71]- ينظر: أثر النحاة في الدرس البلاغي: 206.

و ما فهم من كلام المبرد هو ما عبر عنه البلاغيون بالتعقيد المعنوي الذي يخل بفصاحة الكلام و عرفوه بقولهم: « هو: أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني- الذي هو لازمه و المراد به- ظاهرا، كقول العباس بالأحنف ».[72]

2-التعقيد اللفظي:

كذلك تناول المبرد ما سمي فيما بعد بالتعقيد اللفظي عندما درس بيت الفرزدق و قال: « و من أقبح الضرورة، و أهجن الألفاظ و أبعد المعاني قوله يعني الفرزدق:

وَ مـَـا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلاَّ مُمَلَّكًا *** أَبُــو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُــــوهُ يُقَارِبُهْ ».[73]

لاحظ المبرد ما في البيت من تعقيد سببه ما فيه من تقديم و تأخير، و انفصال الكلام بعضه عن بعض، « فالمبتدأ منفصل عن الخبر، و النعت منفصل عن المنعوت، و المستثنى لم يعقب المستثنى منه، كل هذا واضح من كلام المبرد حين وضع الكلام في موضعه، و فسر معنى البيت بما يقتضيه مراد الشاعر. و المتأخرون حين يقولون عن البيت نفسه إن الفرزدق، فصل بين أبو أمه و هو مبتدأ، و أبوه و هو خبر، بحي و هو أجنبي، و كذا فصل بين حي و يقاربه و هو نعت حي، و أبوه و هو أجنبي و قدم المستثنى على المستثنى منه، فهو كما تراه في غاية التعقيد. و لم يخرجوا في هذا القول عن فحوى كلام المبرد السالف الذكر »[74].

و يبدو أثر المبرد واضحا على المتأخرين إذ أن البيتين اللذين ساقهما المبرد لما تحدث عن التعقيد اللفظي و التعقيد المعنوي هما البيتان اللذان يترددان في كتب

[72]- الإيضاح: 8-9.
[73]- الكامل: 18/1.
[74]- أثر النحاة في البحث البلاغي: 206-207

البلاغة عند المتأخرين كأن الأدب العربي كله قد خلا من أمثلة التعقيد بشقيه، و لم يكن فيه غير هذين البيتين فحسب.

3-التجريد:

لم يقتصر حديث المبرد على علم المعاني و البيان فقط بل جاوزه إلى الحديث عما سماه المتأخرون بالتجريد إذ قال في "الكامل":

قال الأعشى:[75]

يَـــــا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المَطِيِّ وَ لاَ *** يَشْرَبُ كَأْسًا بِكَفِّ مَنْ بَخِلاَ

يقول: « إنما تشرب بكفك و لست ببخيل ».[76]

يرى المتأخرون أن هذا البيت يحتوي على التجريد، و « هذا التجريد كناية عن الكرم ».[77]

كما ذكر المبرد بيتا آخر للأعشى فقال:

« و قوله بأزفار فالزفر الحمل و يضرب مثلا للرجل فيقال أنه لزفر أي حمّال للأثقال و يقال أتى حمله فازدفره. قال أبو قحافة أعشى[78] باهلة:

أَخُـــو رَغَائِبَ يُعْطِيهَا وَ يَسْأَلُهَا *** يَأْبَى الظُلاَمَةَ مِنْهُ النَّوْفَلُ الزُّفَرُ

و إنما يريده بعينه كقولك لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد، و قوله النوفل من قولهم إنه لذو فضل و نوافل ».[79]

---

[75]- ديوان الأعشى: دار صادر بيروت- ط1- دت: 171.
[76]- الكامل: 35/1.
[77]- أثر النحاة في البحث البلاغي: 222.
[78]- البيت غير موجود في الديوان.
[79]- الكامل: 36/1.

و التجريد كما عرفه المتأخرون لون بديعي و هو : «أن ينتزع من أمر ذي صفة أمرا آخر مثله فيها مبالغة في كمالها في المنتزع منه حتى يصير منها ».[80]
و أقسامه كثيرة منها[81]:

-ما يكون بواسطة (من التجريدية) كقولهم: لي من فلان صديق حميم أي بلغ فلان من الصداقة حدا صح معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها.

-ما يكون بواسطة (الباء التجريدية) الداخلة على المنتزع منه كقولهم: لئن سألت فلانا لتسألن به البحر أي بالغ في اتصافه بالسماحة حتى انتزع منه بحرا فيها.

-ما لا يكون بواسطة كقول (قتادة بن مسلمة الحنفي):

فَلَئِـــــنْ بَقِيتُ لأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ *** تَحْوِي الغَنَائِمَ أَوْ بِمَوْتِ كَرِيمِ

عنى بالكريم نفسه و كأنه انتزع من نفسه كريما مبالغة في كرمه و قيل تقديره: أو يموت مني كريم فيكون من قبيل لي من فلان صديق حميم فلا يكون قسما. و فيه نظر لحصول التجريد و تمام المعنى بدون هذا التقدير.

-ما يكون بطريقة الكناية كقول الأعشى:

يَـــــا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المَطِيِّ وَ لاَ *** يَشْرَبُ كَأْسًا بِكَفِّ مَنْ بَخِلاَ

أي يشرب الكأس بكف الجواد فانتزع منه جوادا يشرب هو يكفه عن طريق الكناية لأن الشرب يكف غير البخيل يستلزم الشرب بكف الكريم و هو لا يشرب إلا بكف نفسه، فإذا هو ذلك الكريم.

-ما يكون بمخاطبة الإنسان نفسه كقول الأعشى:[82]

---

[80]- الإحاطة في علوم البلاغة: عبد اللطيف شريفي- زبير دراقي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ط1- 2004م: 177.
[81]- نفسه: 178.
[82]- ديوان الأعشى: البيت غير موجود في الديوان.

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلِ *** وَ هَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ؟

عرف سيبويه التجريد ثم سكت عنه النحاة قرنا كاملا حتى رأيناه مرة أخرى في الكامل للمبرد، فيذكر للتجريد أمثلة ترددت في كتب البلاغيين المتأخرين.[83]

لاشك أن المبرد في باب التجريد قد خطا خطوات عما تركه سيبويه، و أغفله الفراء و ابن قتيبة حتى كاد أن يقبر لولا أن المبرد قد نفخ فيه من جديد فأيقظ الحديث عنه بعد طول سبات.[84]

4–اللف و النشر:

لعل حديث المبرد عن اللف و النشر أول حديث وصل إلينا، فنحن لا نعرف عنه شيئا من قبل، لا عند سيبويه و لا غير سيبويه، حتى نهاية القرن الثالث الهجري على يدي المبرد، و قد كان حديثه شافيا بحيث لم يضف المتأخرون إلى جوهره شيئا مذكورا .[85]

و يعرض المبرد للف و النشر عند قوله: « و قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: ما أحسن الحسنات في آثار السيئات، و أقبح السيئات في آثار الحسنات و أقبح من ذا، و أحسن من ذاك، السيئات في آثار السيئات، و الحسنات في آثار الحسنات، و العرب تلف الخبرين المختلفين ثم ترمي بتفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره ».[86]

[83]– ينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي: 222.
[84]– ينظر: نفسه: 223.
[85]– ينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي: 223.
[86]– الكامل: 75/1.

و أيضا عندما تناول الآية الكريمة: ﴿وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ، وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[87] و شرحها بقوله: « علما بأن المخاطبين يعرفون وقت السكون، و وقت لاكتساب ».[88]

و يعد المتأخرون اللف و النشر من المحسنات البديعية المعنوية و يقولون في تعريف: « هو متعدد على التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه لعلمه بذلك بالقرائن اللفظية و المعنوية »[89]، و هو نوعان[90]:

-أن يكون النشر فيه على ترتيب اللف كقوله تعالى: ﴿وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ، وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ فالسكون راجع إلى الليل و الابتغاء من فضل الله راجع إلى النهار على الترتيب.

-أو أن يكون النشر على خلاف ترتيب الطي أو اللف كقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الحِسَابَ﴾[91] فذكر ابتغاء الفضل للثاني و علم الحساب للأول على خلاف الترتيب.

و من هذا الضرب ما يكون معكوس الترتيب كقول ابن حيوس:[92]

كَيْفَ أَسْلُو وَ أَنْتَ حَقْفَ وَ غَضْنَ *** وَ غَزَالَ لَحْظًا وَ قَدًّا وَ رِدْفًا

---

[87]– سورة القصص: 73.
[88]– الكامل: 41/2.
[89]– الإحاطة في علوم البلاغة: 78.
[90]– نفسه: 78–79.
[91]– سورة الإسراء: 12.
[92]– ديوان ابن حيوس: تحقيق خليل مروم بك– دار صادر بيروت– دط– 1404هـ– 1984م: 337.

فاللحظ للغزال، و القد للغصن، و الردف للحقف و هو الرمل العظيم المستدير .

5-أثر المبرد في فقه اللغة:

كان للمبرد أثر بارز في فقه اللغة حيث أفرد "الاشتقاق" بكتاب مستقل غير أنه لم يصل إلينا، و قد أكثر في "الكامل" من التعرض لبيان اشتقاق كثير من الكلمات اللغوية « و قد يكون أول من عني بالظاهرة اللغوية، و هي دوران المادة حول معنى واحد، فقد عرض لها في جملة صور في الكامل ».[93]

من أمثلة ذلك قوله: « الجنين: ما لم يظهر بعد يقال للقبر: جنن، و الجنين: الذي في بطن أمه. و المجن: الترس لأنه يسترك، و المجنون: المعطى العقل، و يسمى الجن جنا لاختفائهم، و تسمى الدروع الجنن لأنها تستر من كان فيها ».[94]

و قال في البيت: أَلَسْتُ أَرُدُّ القِرْنَ يَرْكَبُ رِدْعَهُ

« فإنما اشتقاقه من السهم، يقال: ارتدع السهم، إذا رجع النصل متأخرا في السنخ، و يقال: ركب البعير ردعه: إذا سقط. فدخلت عنفة في جوفه- فالكلام مشتق بعضه من بعض، و مبين بعضه بعضا فيقال من هذا في المثل: ذهب فلان في حاجتي فارتدع عنها: أي رجع. و كذلك: فلان لا يرتدع عن قبيح، و الأصل ما ذكرت لك أولا ».[95]

و قال في موضع آخر « و أصل العقّ القطع في هذا الموضع، و للعق مواضع كثيرة، يقال: عق والديه يعقهما إذا قطعهما، و عققت عن الصبي من هذا، و قالوا: بل هو من العقيقة و هو الشعر الذي يولد الصبي به، يقال فلان بعقيقته، إذا كان بشعر الصبا لم يحلقه، و يقال: سيف كأنه عقيقة: أي كأنه لمعة برق، يقال: رأيت

[93]- المقتضب لأبي العباس: 52.
[94]- الكامل : 23/3.
[95]- الكامل: 145/1.

عقيقة البرق يا فتى. أي اللمعة منه في السحاب، و يقال فلان عقت تميمة ببلد كذا أي قطعت عنه في ذلك الموضع ».[96]

من اللغويين المتأخرين الذين تأثروا بدراسة المبرد ابن جني و أبن فارس إذ عني بهذه الظاهرة اللغوية أبو الفتح بن الجني في الخصائص، كما ألف أحمد بن فارس كتابه (مقاييس اللغة) لتطبيق هذه الظاهرة في مواد اللغة.

[96]- نفسه: 2/56-57.



بعد هذه الدراسة و في ضوء استقرائي لمدخل البحث و فصوله توصلت إلى النتائج العلمية التالية:

- المبرد يعرض لأبيات التشبيه و هو على طريقة اللّغويين المحاضرين يفسر لغويا مفردات البيت مستشهدا لتفسيره بأبيات أخرى، و قد يتتبع معنى البيت لدى شعراء آخرين.
- بدأ باب التشبيه بتشبيهات الشعراء الجاهليين فالأمويين فالعباسيين، و كان يتمثل أحيانا بأخبار أو شواهد شعرية من مختلف العصور.
- يسوق المبرّد التشبيهات التي تعالج صورة معينة كخفقان القلب مثلا، صفة تغير المياه.
- على الرغم من غزارة الأسماء التي أطلقها المبرّد على ألوان التشبيه و الأقسام التي عدّدها، فإنه لم يشر أية إشارة إلى التشبيه المعكوس الذي ظفر فيها بعد بنصيب وافر من الحديث و خاصة عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة.

و ربما يكون المبرّد قد تركه، لأن الحديث عن أقسام التشبيه كافة على حد قوله، لا ينتهي. و لذلك فهو يقول: « و التشبيه كثير، و هو باب كأنه لا آخر له، و إنّما ذكرنا منه شيئا لئلاّ يخلو هذا الكتاب من شيء من المعاني». و كأنّه بذلك يعلل عدم ذكره لكل ألوان التشبيه و أقسامه.

- ينص المبرّد في نهاية هذا الباب على أنّ التشبيه طويل، لكنّه لم يرد أن يخلى كتابه هذا من المعاني، و واضح من حديثه أن مصطلح التشبيه هنا إنما هو بمعنى الوصف كغرض من أغراض الشعر و ليس الصورة البيانية بمصطلح البلاغيين.
- نلاحظ أن المبرد يعتبر التشبيه معنى من المعاني، و ليس مجرد صنعة لفظية و ركنا من أركان البديع كما كان عند سابقيه و لذلك فهو يقول « إنما ذكرنا منه شيئا لئلا

يخلو هذا الكتاب من شيء من المعاني ».و هذا يفيد أن التشبيه ليس بمجاز عند المبرد بل هو حقيقة.

- إن المبرد أعطانا صورة للذوق العربي الخالص لأن ثقافته عربية خالصة لم تشب بعلم أجنبي فهو ينقد نقدا تأثريا ما يستحسنه من تشبيهات. و هذا النقد قائم على الإحساس بأثر الشعر في النفس، و على مقدار وقع الكلام عليه، فالحكم مرتبط بهذا الإحساس قوة و ضعفا، و المبرد يحس أثر الشعر إحساسا فطريا لا تعقيد فيه، و يتذوقه جبلة و طبعا.
- إن المبرّد نقل التشبيه نقلة واسعة، و وسع مباحثه و هيّأ له فرصة الشيوع، إلا أنّ تلك التقسيمات التي حدّدها لم يضع لها حدودا تميز كل نوع عما مضى، كما أنه حكم على بعضها بالحسن، أو القبح دون أن يعلل لذلك، و لكنه في عصره المبكر لم يكن ينتظر منه أكثر من هذا.
- لقد كانت شواهده دخرا لمن درس التشبيه بعده، و ذكر أنه لم يعن بتعريف و لا تحديد و لا ضبط للأقسام، فهو إذا قسم عرف كل قسم بشواهده و مثله و لم يذكر ضابطا واحدا فيما كتب عن التشبيه، و ربما هذه هي القيمة الكبرى لبحثه في التشبيه.
- كانت هذه النتائج حوصلة ما أمكنني التوصل إليه خلال بحثي هذا، الذي يعد عملا متواضعا في البحث العلمي، و أرجو أن أكون قد ساهمت و لو بقليل في إثراء الدراسات و البحوث العلمية و يساعد على نبوغ دراسات أكثر في المستقبل، أتمنى أن أكون قد وفقت فيه، و ما التوفيق إلا من عند الله .

و الله ولي التوفيق

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.

1- ابن المعتز و تراثه في الأدب و النقد و البيان-محمد عبد المنعم خفاجي- دار الجيل- بيروت- ط2- 1411هـ/1991م.

2- أبو العباس المبرّد و أثره في علوم العربية لمحمد عبد الخلق عضيمة- مكتبة الرشد- الرياض- ط1- 1405هـ.

3- أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلا، قدم له محمد خلق الله أحمد- مكتبة الشباب- ط1- د.ت.

4- أثر النحاة في البحث البلاغي- عبد القادر حسين- دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع- القاهرة- ط1- د.ت-.

5- الإحاطة في علوم البلاغة- عبد اللطيف شريفي، زبير دراقي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ط1- 2004.

6- أسرار البلاغة في علم البيان- الإمام عبد القاهر الجرجاني صححها على نسخة الإمام الشيخ محمد عبده التي قرأها دروسا في الجامع الأزهر- و أودع فيها جلّ تعليقاته على حواشيها و علق حواشيها محمد رشيد رضا-دار المعرفة- بيروت- لبنان- ط2- د.ت.

7- الأعلام- قاموس التراجم- خير الدين الزركلي- دار العلم للملايين- بيروت- لبنان- ط7-1986.

8- الإيضاح في علوم البلاغة و المعاني و البيان و البديع- الخطيب القزويني- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1- د.ت.

9- البحث البلاغي عند العرب تأصيل و تقييم- شفيع السيد- دار الفكر العربي- ط2- 1416هـ/1996م.

10- البديع - عبد الله بن المعتز- اعتنى بنشره و تعليق المقدمة و الفهارس اغناطيوس كراتشقوفسكي- دار المسسيرة- ط2- 1399هـ/1979م.

11- بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة للحافظ جلال الدين عن الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم- المكتبة العصرية- صيدا بيروت- ط1- ج1- د.ت.

12- بلاغة القرآن بين الفن و التاريخ- دراسة تاريخية فنية مقارنة- لفتحي أحمد عامر- منشأة المعارف بالإسكندرية-ط1-دت.

13- البلاغة تطور و تاريخ-لشوقي ضيف-دار المعارف-ط7-1965.

14- البلاغة العربية في فنوها-محمد علي السلطاني-مطبعة زيد بن ثابت-ط1-1979م/1980م.

15- البلاغة-أبي العباس محمد بن يزيد المبرد-حققها و قدم لها ووضع فهارسها رمضان عبد التواب -مكتبة الثقافة الدينية-ط2-1405هـ/1985م.

16- تأويل مشكل القرآن -أبي عبيدة محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة -شركة السيد أحمد صقر- المكتبة العلمية- ط1- د.ت.

17- تهذيب اللغة- أبي منصور محمد بن أحمد بن الزهر الأزهري الهروي المتفى 370هـ- تحقيق أحمد عبد الرحمن مخيمر- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1- 2004.

18- البيان و التبيين- لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ- تحقيق درويش جويدي- المكتبة العصرية- صيدا بيروت- 1429هـ/2001م.

19- البيان العربي لبدوي طبانة- دار الثقافة بيروت لبنان- ط1- 1406هـ/1985م.

20- البيان فن الصورة- لمصطفى الصاوي الجويني- دار المعرفة الجامعية- اسكندرية- 1993م.

21- البيان في ضوء أساليب القرن الكريم- عبد الفتاح لاشين- دار الفكر العربي- ط2-1420هـ/2000م.

22- تاريخ بغداد أو مدينة السلام- للخطيب البغدادي- دار الكتب العلمية- بيروت لبنان- ط1- د.ت-ج3.

23- تاريخ النقد الأدبي و البلاغة حتى أواخر القرن الرابع الهجري- لمحمد زغلول سلام- منشأة المعارف الإسكندرية- ط3- د.ت.

24- التفكير البلاغي عند العرب أسسه و تطوره إلى القرن السادس- لحمادي صمود- منشورات الجامعة التونسية- طبع بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية- ط1- 1981م.

25- تفسير غريب القرآن- لأبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة- شرحه إبراهيم محمد رمضان- مكتبة الهلال بيروت- ط1- 1991م.

26- التعبير الزمني عند النحاة العرب حتى القرن الثالث- ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية- ج2.

27- التعبير الفني في القرآن- لبكري شيخ أمين- دار العلم للملايين- بيروت لبنان- ط6-2001م.

28- التلخيص في علوم القرآن- ضبط و شرح عبد الرحمن البرقوقي- دار الكتاب العربي لبنان- ط1- 1904م.

29- الجامع لأحكام القرآن- لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القوطبي- اعتنى به و صححه الشيخ هشام سمير البخاري- دار إحياء التراث العربي- بيروت لبنان- ط1- 1466هـ/2001م-ج1.

30- الحيوان للجاحظ- تحقيق و شرح عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت- ط1- 1416هـ/ 1996م.

31- الخصائص لابن جني- تحقيق محمد علي النجار-دار الكتاب العربي- 1371هـ/1956م.

32-الخصومة بين القدماء و المحدثين في النقد العربي القديم تاريخها و قضاياها- لعثمان موافي- دار المعرفة الجامعية- ط3-1995م.

33- دلائل الإعجاز في علم المعاني- للإمام عبد القاهر الجرجاني صحح أصله علامتا المعقول و المنقول الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية و الشيخ محمد محمود التركيزي الشنقطي- علق عليه محمد رشيد رضا- دار المعرفة- بيروت-ط3- 1421هـ/2001م.

34- ديوان ابن حيوس- تحقيق خليل مروم بك- دار صادر بيروت-ط1- 1404هـ/1984م.

35- ديوان أبي الشمقمق- جمعه و حققه و شرحه واضح محمد الصمد- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1- 1415هـ/1995م.

36- ديان أبي نواس- دار صادر بيروت- ط1- د.ت.

37- ديوان الأعشى- دار صادر بيروت- ط1- 1414هـ/1994م.

38- ديوان امرئ القيس- دار صادر بيروت- ط1-د.ت.

39- ديوان أوس بن حجر- تحقيق محمد بن يوسف نجم، دار صادر بيروت- ط2- د.ت.

40- ديوان بشار بن برد- جمع و تحقيق و شرح الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور- الشركة التونسية للتوزيع- ط1- 1976.

41- ديوان توبة بن الحمير- عني بتحقيقه و شرحه خليل ابراهيم عطية- دار صادر- بيروت- ط1- 1998م.

42- ديان جرير- دار صادر بيروت- ط1- 1991م.

43- ديوان الحطيئة- رواية حبيب عن ابن الأعرابي و أبي عمرو الثيباني- شرح أبي سعيد السكري- دار صادر بيروت- ط1- د.ت.

44- ديوان الخنساء- دار بيروت للطباعة و النشر- ط1- 1398هـ/1978م.
45- ديوان دعبل بن علي الخزاعي- جمعه و حققه محمد يوسف نجم- نشر و توزيع دار الثقافة- بيروت- لبنان- ط1- 1409هـ/1989م.
46- ديوان ذي الرمة- و هو غيلان بن عقبة العدوي- راجعه و قدم له و أتم شروحه و تعليقاته زهير فتح الله- دار صادر –بيروت- ط1- 1995.
47- ديوان زهير بن أبي سلمى- دار صادر بيروت- ط1- د.ت.
48- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني- حققه و شرحه صلاح الدين الهادي- دار المعارف بمصر- ط1- 1388هـ/1968م.
49- ديوان العباس بن الأحنف- دار صادر – بيروت- لبنان- ط1- 1398هـ/1978م.
50- ديوان عنترة- دار صادر- بيروت- ط1- 1416هـ/1996م.
51- ديوان الفرزدق- دار صادر للطباعة و النشر بيروت- 1380هـ/1960م- ط1.
52- ديوان النابغة الذبياني- تحقيق وشرح كرم البستاني- دار صادر- بيروت- ط1- دت.
53- الشعر و الشعراء- لأبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة- قدم له و راجعه حسن تميم و محمد عبد المنعم العريان- دار إحياء العلوم بيروت- ط5- 1414هـ/1994م.
54- شعر الهذيليين في العصرين الجاهلي و الإسلامي- أحمد كمال زكي- دار الكاتب العربي للطباعة و النشر- 1389هـ/1969م- ط1.
55- 1الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي- لجابر أحمد عصفور- دار الثقافة للطباعة و النشر بالقاهرة- ط1- د.ت.
56- الصناعتين الكتابة و الشعر- أبي هلال العسكري- تحقيق علي محمد بجاوي و محمد أبو الفضل ابراهيم- دار الفكر العربي- ط2- د.ت.

57-العمدة في محاسن الشعر و آدابه- للإمام أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني- تحقيق محمد قزقزان- دار المعرفة- بيروت- ط1- 1987م-ج2.
58-علم المعاني- البيان- البديع لعبد العزيز عتيق- دار النهضة العربية للطباعة و النشر- بيروت- ط1- د.ت.
59-عيون الأخبار- ابن قتيبة- إعادة طبعه دار الكتاب العربي- دار الكتب المصري- ط1- 1925م-ج2.
60-عيار الشعر- محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي- دراسة و تحقيق و تعليق محمد زغلول سلام- منشأة المعارف بالإسكندرية- ط3-دت.
61-الفهرست- لمحمد بن اسحاق النديم- حققه و قدم له مصطفى الشويمي- دار التونسية للنشر- ط1- 1406هـ/1985م.
62-في إنباه الرواة على أنباه النحاة- لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي- تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم- دار الفكر العربي- القاهرة- مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت- ط1- 1406هـ/1976م- ج3.
63-في طبقات النحويين اللغويين- للزبيدي الأندلسي- تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم- دار المعرفة- ط1- 1979م.
64-في تاريخ البلاغة العربية- لعبد العزيز عتيق- دار النهضة العربية- لبنان- ط1- د.ت.
65-الكامل -لأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد عارضه بأصوله و علق عليه محمد أبو الفضل ابراهيم و السيد شحاته- دار النهضة مصر للطبع و النشر- ط1- د.ت.
66-الكامل في اللغة و الآداب- للعلامة أبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي المتوفي 285هـ- مؤسسة المعارف بيروت- ط1- د.ت.
67-الكتاب- لسيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر- تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون- دار الكتب العلمية- بيروت- مكتبة الخانجي القاهرة- ط1- د.ت.

68- الكشاف عن حقائق التتريل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل-لأبي القاسم جار الله، محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي- دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع- ج1.
69- لسان العرب- ابن منظور- دار صادر- بيروت لبنان- ط3-1414هـ/1954م.
70- المختصر في تاريخ البلاغة- عبد القادر حسين- دار الشروق-ط1-1402هـ/1982م.
71- المرايا المقعرة"نحو نظرية نقدية عربية"- عبد العزيز حمودة- الكويت سلسلة عالم المعرفة- إصدار المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب- اغسطس /2001م.
72- المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها و تطورها حتى القرن السابع الهجري- لأحمد جمال العمري- مكتبة الخانجي بالقاهرة- ط1-1410هـ/1990م.
73- مجاز القرآن- أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي- تحقيق محمد فؤاد سركين- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط2- 1981م.
74- معاني القرآن- الفرّاء أبي زكرياء يحي بن زياد- عالم الكتب- ط3-1973م.
75- الموشح: مآخذ العلماء على الشعراء، في عدة أنواع من صناعة الشعر- للمرزباني- تحقيق علي محمد البجاوي- دار الفكر العربي- ط1- 1385هـ/1965م.
76- الموجز في تاريخ البلاغة- لمازن المبارك- دار الفكر- ط2- 1400هـ/1979م.
77- المقتضب-أبي العباس محمد بن يزيد المبرد- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم-ط1-دت
78- المقدمة- لابن خلدون- دار الكتاب اللبناني و مكتبة المدرسة- بيروت لبنان- ط1-د.ت.
79- معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب- لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي- ط1- د.ت.

80- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي عن الكتب الستة و عن مسند التارمي و موطأ مالك و مسند أحمد بن حنبل- ابتدأ ترتيبه و تنظيمه و نشره أ . ي . ونسنك وي . ب . منسنج-أتبع نشره ي. بروخمان-مطبعة بريل في مدينة ليدن-ط1-1967م.

81- المصطلح النحوي: نشأته و تطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري- لعوض حمد القوزي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1983م- ط1.

82- المختصر في تاريخ البلاغة- لعبد القادر حسين-دار الشروق-ط1-1402هـ/1982م.

83- المدارس النحوية- شوقي صنيف- دار المعارف بمصر- ط1- د.ت.

84- النبأ العظيم "نظرات جديدة في القرآن"- لمحمد عبد الله دراز- دار القلم الكويت-ط4- 1977م.

85- النص الشعري و مشكلات التفسير-عاطف جودة نصر- مكتبة لبنان- ط1- 1996م.

86- نظرية النظم- صالح بلعيد- دار هومة- الجزائر- ط1-2002م.

87- النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين- لمحمد الصغير بناني- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائرية- ط1- 1994م.

88- نقد النثر- أبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي- دار الكتب العلمية- بيروت لبنان- ط1-1402هـ/1982م.

89- نقد الشعر- أبي الفرج قدامة بن جعفر- تحقيق و تعليق محمد عبد المنعم خفاجي- دار الكتب العلمية- بيروت لبنان- ط1-دت .

90- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان- لابن خلكان- دار صادر بيروت- ج4.

الدوريات:

صور البيان في تفسير الزمخشري- عبد الجليل مصطفاوي- رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة في اللغة- 1421هـ/2000م.

